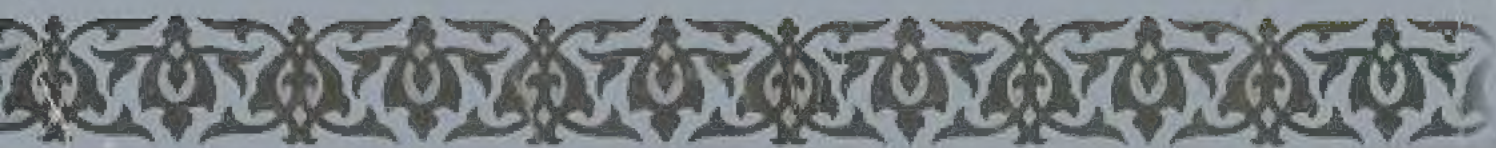


مصطفى محمود



القرآن كائن حي

محرر فلاحه

نحن لكم آبقا

القرآن كائن حي

اللغة القرآنية تختلف عن لغتنا التي نكتب بها أو نتكلم بها في
أنها محكمة لا خطأ فيها ولا نقص ولا زيادة .

وقد كثر الكلام عن الآيات الكونية التي تحدثت عن النجوم
ومساراتها والأرض وخلقها والحياة وبنائها .. وكيف جاءت
العلوم الحديثة بالجديد المبهر من الحقائق خلال مئات السنين التي
أعقبت التنزيل القرآني فلم تحرق حرفاً قرآنياً واحداً ولم تنقض آية
بل توافقت جميعها مع كلام القرآن وزادته توكيداً .

كما جاء القرآن في نظم الحكم وفي الاقتصاد وفي الأخلاق وفي
حقوق الإنسان وفي الأسرة وفي الزواج والمرأة والشرائع بالكلمة
النهائية الجامعة .

كما انفرد بذورة في البلاغة وقفة في البيان وجمال في الأسلوب
لم يطاوله فيه كتاب .. وقد أفاض القدماء في هذا وأغنونا .

لكن يظل هناك وجه معجز من وجوه القرآن ربما كان أهم
من كل هذه الوجوه .. يحتاج إلى وقفة طويلة .. وهو ما أسميته
بالمعمار أو البنية الهندسية أو التركيب العضوي أو الترابط الحي بين
الكلمة والكلمة .

وما أشبه القرآن في ذلك بالكائن الحي .. الكلمة فيه أشبه
بالخلية .. فبالخلايا تتكرر وتشابه في الكائن الحي ومع ذلك فهي
لا تتكرر أبداً .. وإنما تتنوع وتختلف .. وكذلك الكلمة القرآنية
فإننا نراها تتكرر في السياق القرآني ربما مئات المرات ثم نكتشف
أنها لا تتكرر أبداً رغم ذلك إذ هي في كل مرة تحمل مشهداً جديداً ..
وما يحدث أنها تخرج بنا من الإجمال إلى التفصيل .. وأنها تنفرع
تفرعاً عضوياً .. تماماً مثل البذرة التي تعطي جذراً وساقاً ثم أغصاناً
ثم أوراقاً ثم براعم ثم أزهاراً ثم ثماراً وهي في كل مرة لا تخرج
عن كونها نبات البرتقال .. ولكنها عبر هذا التفصيل تعطينا في
النهاية حقيقة نبات البرتقال .. وذلك هو الترابط العضوي أو
المعمار الحي .. والقرآن بهذا المعنى يشبه جسماً حياً .. والكلمة
القرآنية تشبه كائناً حياً أو خلية جنينية حية فهي تنفرع عبر التكرار
الظاهر لتعرض مشاهد تكمل بعضها بعضاً تماماً كما تنقسم خلية

الجين لتعطي خلايا الرئتين والقلب والكبد والأحشاء والعظام
والجهاز العصبي إلى أن تعطينا في النهاية إنساناً كاملاً .. وقد جاء كل
هذا التنوع من خلايا متشابهة .. فذلك هو التفصيل الذي كان
مجملاً في الخلية الأولى للجين .

وكمثال نأخذ كلمة « العلم » في القرآن .

فنجد أن العلم يأتي في البداية مجملاً بمعنى النظر في خلق السموات
والأرض .. ثم نجد هذا النظر يأتي بعد ذلك مفصلاً .. « إلى الإبل
كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت
وإلى الأرض كيف سطحت » .

وهذه هي علوم الإحياء والفلك والجيولوجيا والجغرافيا
كما نعرفها الآن ..

ثم ينقلنا القرآن إلى نظر من نوع آخر .

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة الذين
من قبلكم » .

وذلك هو النظر في التاريخ .

ثم تنوع آخر :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

وذلك هو النظر في التطور وعلم الأجناس .

كيف كانت بداية هذا كله .

« خلق كل دابة من ماء »

« والله خلقكم من تراب » .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

ذلك هو الأمر كما ورد مجملاً في البداية .

ثم جاء بعد ذلك التفصيل .

« من نطفة » .

ثم تفصيل أكثر .

« نطفة من منى يمنى » ٣٧ - القيامة

ثم نرى النطفة تأتي في أكثر من عشرة مواضع ، فنجدها كل مرة تأتي بمشهد تفصيلي مختلف .

فهى « نطفة أمشاج » ٢ - الإنسان

أى أخلاط من صفات وخصائص متنوعة .

وذلك هو مانعرفه الآن بالجينات الوراثية .

ثم يأتينا القرآن بتفصيل أكثر بأن النطفة المنوية هى التى تحدد جنس المولود إن كان ذكراً أم أنثى .

« خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى »

٤٦ - النجم

ثم تفصيل ثالث وهو أن هذه النطفة مقدره بتركيبها هذا من الخالق وليست شيئاً عشوائياً من تدبير الصدفة .

« من نطفة خلقه فقدره » ١٩ - عبس

ثم ينقلنا القرآن إلى مشهد مكافئ .

« ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » ١٣ - المؤمنین

تلك النطفة مستقرها الرحم .

ثم ينقلنا إلى مشهد زمانى ، فيضع هذه النطفة فى سياقها التاريخى ويربطها ببدايتها الأولى السحيق من التراب .

« فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه » ٥ - الحج

ثم يعطينا تفاصيل أكثر لما حدث فى هذا السياق التاريخى . .

إن النطف كانت فى البداية نطفاً غير جنسية تتكاثر بالانقسام الخضرى بدون تزاوج ، ثم تنوعت بعد ذلك إلى ذكر وأنثى وظهر التكاثر التزاوجى .

تأتي هذه الإشارة في الآية :

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا »

١٦ - فاطر

فجعل الأزواج تأتي متأخرة بعد النطف . . مما يدل على أن النطف المقصودة هنا هي نطف أولية لم يتعين فيها ذكر أو أنثى وهو ما يعرف بالتكاثر اللائزاجي : Asexual Reproduction

ثم يعطينا مشهداً آخر تفصيلياً عن تسلسل النطفة في سياقها في مراحل خلق الجنين :

« ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »

ثم ينقلنا إلى مشهد غيبي :

« أو لم ير الإنسان إنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين »

٧٧ - يس

وذلك الأشهاد حدث في الغيب قبل أن نولد :

« وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » .

هذا موقف أشهاد حدث للنفوس قبل أن تنزل في الأرحام .

ثم مشهد عتاب ومؤاخذة :

« أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً »
٣٧ - الكهف

بعد كل هذا تكفر بخالقك .

وهكذا تتكرر كلمة النطفة فلا تتكرر أبداً وإنما تحمل في كل مرة مشهداً جديداً بحيث يتكامل معناها في الذهن كما يتكامل كائن حي من بذرة تنمو شيئاً فشيئاً إلى نبات كامل .

ثم ينتقل في مدارج العلم من النطفة نزولاً حتى أصغر شيء يصل إليه العلم . . الذرة ومثقال الذرة . . فيلفت النظر إلى أن هناك ما هو أصغر من مثقال الذرة .

« لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » .

ثم يعود فيلفت نظرنا إلى أن كل هذه العلوم التي أشار إليها إنما هي علوم كونية خاصة بالكون الخارجي الموضوعي وما فيه من نبات وحيوان وإنسان وجبال وأنهار وأقمار وشموس ونجوم . . ولكن هناك نوع آخر من العلم مطلوب منا أن ننظر فيه وذلك هو العلم بالنفس .

« وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ،

ثم نوع أكبر من العلم بالنفس هو العلم بالله .

« فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك » .

وبطول صفحات القرآن وسوره يعرفنا بهذا الإله .. بوحديته وخصائصه وأسمائه وأفعاله وذاته .

ثم يتكلم عن علم آخر هو العلم بالغيب .

وغيب الغيب هي ذات الله ولا طاقة لأحد بعلمها .

فالله « ليس كمثله شيء » .

وكذلك العلم بالساعة .

« علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو » .

لكن هناك غيب آخر هو الملائكة والجن والسموات السبع وسورة المنتهى واللوح المحفوظ والعرش ، وذلك غيب يطالع الله عليه من ارتضاه من رسله .

« لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » .

وهكذا تتكرر كلمة العلم فى القرآن فلا تتكرر وإنما تنفرع وتنوع وتتفصل مثل شجرة تعطى الجذور والسيقان والأغصان والأوراق والأزهار والثمار . . فهناك علم بالكون وعلم بالنفس

وعلم بالله . . ثم تنفصل هذه العلوم بحدودها وأنواعها فى رحلة الكلمة داخل القرآن .

والعلوم الكونية وحدها لا تصنع من الإنسان عالماً . . فالعلم بظواهر الأشياء ومقاديرها وعلاقاتها هو دائماً علم ناقص . . وأهل الغفلة هم الذين يقتصرون على هذه العلوم الظاهرة .

« يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

وهؤلاء هم الذين « فرحوا بما عندهم من العلم » وكذبوا الرسل وكفروا بالغيب وأنكروا الله فهلكوا .

ولا يكون العلم كاملاً إلا إذا أوصلك إلى العلم بنفسك ثم إلى العلم بالله ، فذلك هو العلم حقاً .

بهذه الرحلة لكلمة « العلم » فى القرآن وانتقالها من الإجمال إلى التفصيل ثم إلى تفصيل التفصيل لا نقع على تكرار أبداً وإنما نجد نمواً عضوياً يتكامل فى الذهن عبر السياق القرآنى كما تنمو البذرة إلى جذر وساق وفروع وزهر وشجرة كاملة مثمرة . . وكما يفتح المفتاح الواحد على غرف للنوم وقاعات انتظار وقاعات للأكل وكافتيريا وصالة استقبال ومكاتب للإدارة ، فتجتمع للذهن صورة كاملة لفندق . . وذلك ما أسميته بالمعمار القرآنى أو البنيان

العضوى أه الترابط الحى بحيث نجد كل كلمة تكمل الأخرى
وتشرحها وتفصلها دون تكرار ودون زيادة ودون نقصان ،
وبحيث يصبح القرآن وكأنه جسم مؤلف من خلايا أو معمار هندسى
مبنى من لبنات محسوبة مدروسة أو كون مترابط متماسك ليس
فيه فضول أو لغو أو تكرار أو اختلاف أو تناقض .

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

وهذا هو القرآن . . حكمه حكم بدن فيه روح .

ولهذا يقول لنبىه عن القرآن .

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » .

فيسمى القرآن روحاً . . وهذه الخصائص تشهد بالفعل أنه
روح .

وذلك هو الكمال المعجز .

وكمثال آخر نجد كلمة « الجنة » تتكرر كثيراً فى القرآن ،
ولكن إذا دققنا النظر وجدنا أنها تقدم فى كل مرة مشهداً مختلفاً .
فهي مرة جنات وعيون ، ومرة جنات ونهر ، ومرة جنات من
نخيل وأعنان .

وبعد عرض مشاهد الحرير والاستبرق والذهب والفضة
والخور العين والأزواج المطهرة والعسل والخمر واللبن والكؤوس
التي مزاجها الكافور والزنجبيل والمساكن الطيبة فى جنات عدن
والغرف التي من فوقها غرف مبنية . . يفاجئك القرآن بعوالم
من الأسرار ، فيقول مشيراً إلى الجانب الغيبى من الجنة :

« لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » .

وفى مكان آخر يقول إنهم فى « مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وفى مكان آخر . . « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » .

وفى مكان ثالث « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » .

وكل هذه أسرار .

ثم هو بعد أن يصف كل المشتبهات فى عالم المادة وعالم الغيب
يعود فيقول . . « ولدينا مزيد » .

« ورضوان من الله أكبر » أكبر من هذا كله .

تلك هي رحلة كلمة الجنة فى القرآن . . عالم خلايب من
الصور لا تكرار فيه ، يخاطب الجوع المادى ، ويخاطب الجوع
الروحى ، ويخاطب الوجدان الفلسفى ، ويخاطب عرائس الخيال

والأحلام ، ويخاطب طموح الإنسان الذي لا يرضى بشئ .
فيطمئنه في النهاية .

« وسوف يعطيك ربك فترضى » ٤ - الضحى

ولقد سبق أن قلنا في مقالات سابقة أن كلمات القرآن كلمات منفردة بذاتها وبخصائصها لا تستطيع أن تغير كلمة أو تبدل عبارة أو تقدم جملة ، فكل كلمة تمسك بالأخرى مثل الذرات في مجال مغناطيسى محكم . . حتى الحرف لا يأتى فى القرآن إلا لضرورة ولا يمكنك أن ترفع حرفاً من مكانه أو تستبدله بحرف آخر .

يقول القرآن عن الصبر على المصيبة :

« إن ذلك من عزم الأمور » ١٧ - لقمان

ثم نراه يضيف حرف « اللام » للتوكيد حينما يتكلم عن الصبر على أذى الآخرين فيقول . . « إن ذلك لمن عزم الأمور » .
« ولمن صبر وغفر ، إن ذلك لمن عزم الأمور »

٤٣ - الشورى

لماذا أضاف حرف « اللام » فى الآية الثانية .

لأن الصبر على أذى الغريم الذى تستطيع أن ترد عليه بأذى مثله يحتاج منك إلى عزم أكبر . . فالصبر هنا ليس كالصبر على مصيبة لا حيلة لك فيها وبالمثل نرى الله يقول لليهود الماديين :

« اتقوا النار » .

ويقول للمؤمنين أولى الأبواب :

« اتقوني يا أولى الأبواب » .

لأن العقليات المادية لا تخاف إلا النار المادية . أما أولوا الأبواب فإنهم يعرفون أن خالق النار أخطر شأناً من النار ، ولهذا نراه يضيف الضمير فيقول :

« اتقوني يا أولى الأبواب » .

وهكذا نرى أن الحروف فى القرآن لا ترد اعتباطاً وإنما تأتى بحساب والحكمة .

ومثال آخر نرى القرآن يقول :

« ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » ١ - التكاثر

فلماذا . . زرتم . . لماذا لم يقل سكنتم المقابر ، أو دخلتم

المقابر ، أو حللتم فى المقابر ، أو ملأتم المقابر .

ولماذا قال « زرتم » .

ليلفت النظر إلى أن المقام فى القبر مقام مؤقت وأن الدخول إلى القبر دخول زيارة لا دخول سكنى .

تدل على ذلك آية ثانية عن الموت جاءت في سورة آل عمران
— ١٥٤ :

« قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى
مضاجعهم » .

فيصف رقدة الموت بأنها مجرد ضجعة وأن القبر مجرد مضجع ...
والضجعة بعدها انتباه وقيام .

وتلك دقة بالغة في التعبير تجعل كل كلمة مقصودة لضرورة
ولا يمكن استبدالها .

ثم نرى القرآن يختار الفعل المتعدد المعاني للمناسبة المتعددة
المعاني . . فهو يقول عن الأرض :

« والأرض بعد ذلك دحاها » .

والفعل « دحى » هو الفعل الوحيد في القاموس العربي الذي
يعني البسط والتكوير معاً ولا يصلح للتعبير عن حال الأرض
إلا هذا الفعل ، لأن الأرض منبسطة في الظاهر مكورة في الحقيقة
٥ . ثم إن تكويرها يبيض أشبه بتكوير « الدحية » أو البيضة .

ولا يوجد في المعجم العربي أى لفظ آخر يعطى هذه المعاني
المتعددة ويستوفي الوصف الظاهر والوصف المستتر للأرض غير
هذا اللفظ . . فنحن أمام لفظ ليس له بديل .

وبالمثل نراه يصف الرياح بأنها « لواقح » :

« وأرسلنا الرياح لواقح » .

والرياح تلاقح بين السحب الموجبة والسحب السالبة التكهرب ،
وهي أيضاً تحمل حبوب اللقاح من أعضاء التذكير إلى أعضاء
التأنيث في الزهر . . ثم هي أيضاً تحمل بخار الماء الذي يتزل مطراً
على الأرض فيلقحها ويخصبها .

فانتقاء اللفظ هنا انتقاء مطلق بحيث لا يصلح في القاموس
لفظ غيره . . فلا يمكن استبداله بحال .

ثم إنك لا تستطيع أن تؤخر أو تقدم كلمة من مكانها
في السياق لأن التأخير والتقديم في الكلمات القرآنية هو الآخر محسوب
وهو دائماً لوظيفة ولهدف .

فالزانية تأتي قبل الزاني في الآية :

« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

٢ — النور

بينما نرى السارق يأتي قبل السارقة في الآية .

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » ٣٨ — المائدة

ذلك لأن المرأة هي التي تبادر بالخطوة الأولى في الزنا منذ أن تقف أمام المرأة لتضع المكياج وتلبس العريان . . أما في السرقة فالرجل هو الأكثر إيجابية .

وبالمثل نجد السمع مقدماً على البصر في ستة عشر موضعاً . ومعلوم الآن أن جهاز السمع أدق تشريحياً من جهاز البصر ، وأن السمع أرهف ، وأن تنوع النغمات أكثر من تنوع الألوان ، وأن موهبة السمع تصل إلى إمكان الاستماع إلى الوحي من الملائكة . . ولقد علمنا أن موسى سمع ربه ولكنه عجز عن أن يراه ، وذلك بسبب محدودية الجهاز البصري .

وهذا هو القرآن . . بنياناً محكماً من الألفاظ لا تستطيع أن ترفع فيه كلمة أو تبدلها أو تؤخرها أو تقدمها . . تتكرر كلماته بحساب ولحكمة ولهدف لكي تكشف عن مكنونها وتبوح بأسرارها وثرائها . ثم إن هذا التنوع والتفصيل ينتهي بالقارئ إلى كمال مراد مقصود وإني تمام في الفهم والتصور .

« وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته »

١١٥ - الأنعام

فذلك هو التمام المقصود .

ولا يقدر على هذا اللون من تركيب الألفاظ بشر .

وبين الذين يعكفون ويتأملون ويدرسون في هذا الموضوع . . « موضوع الترابط القرآني » . . مفكر إسلامي جديد هو الأخ محمد العفيفي ، اعتزل في الكويت يتأمل في أسرار اللفظ القرآني . . وله ثلاثة كتب في هذا الباب . . القرآن تفسير الكون والحياة . . مقدمة في التخلف والتقدم . . والقرآن دعوة حق . . وكلها محاولات جادة لاستجلاء هذا العلم الشريف وكشف دقائقه . . وهي إضافة ثمينة للمكتبة القرآنية . . لا غنى عنها .

النفس والروح

في اللغة الدارجة نخلط دائماً بين النفس والروح ، فنقول
إن فلاناً طلعت روحه . . ونقول إن فلاناً روحه تشبه كذا ،
أو أن روحه تتعذب ، أو أن روحه توصوس ، له أو أن روحه
زهقت ، أو أن روحه اطمأنت ، أو أن روحه تافقت واشتافت
أو ضجرت وملت . . وكلها تعبيرات خاطئة ، وكلها أحوال تخص
النفس وليس الروح .

فالتى تخرج من بدن الميت عند الحشجة والموت هي نفسه
وليست روحه .

يقول الملائكة في القرآن للمجرمين ساعة الموت :

« اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » . ٩٣ - الأنعام

والتي تذوق الموت هي النفس وليس الروح .

« كل نفس ذائقة الموت » ١٨ - آل عمران

والنفس تذوق الموت ولكن لا تموت . . فتذوقها الموت هو رحلة خروجها من البدن ، والنفس موجودة قبل الميلاد ، وهي موجودة بطول الحياة ، وهي باقية بعد الموت ، وعن وجود الأنفس قبل ميلاد أصحابها يقول الله : إنه أخذ الذرية من ظهور الآباء قبل أن تولد وأشهادها على ربوبيته حتى لا يتعلل أحد بأنه كفر لأنه وجد آباءه على الكفر .

« وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا » .

١٧٣ - الإعراف

فذلك مشهد أحضرت فيه الأنفس قبل أن تلبس أجسادها بالميلاد ، وليس لأحد عذر بأن يكفر بعلّة كفر أبيه ، فقد كان لكل نفس مشهد مستقل طالعت فيه الربوبية . . وبهذا استقرت حقيقة الربوبية في فطرتنا جميعاً .

ثم إن الروح لا توسوس ولا تشتهى ولا تهوى ولا تضجر ولا تمل ولا تتعذب ولا تعاني هبوطاً ولا انتكاساً . . إنما تلك كلها من أحوال النفس وليس الروح .

يقول القرآن :

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله » . ٣٠ - المائدة

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » . ١٦ - ق

« ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها » .

٧ و ٨ - الشمس

« بل سئلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » ١٨ - يوسف

« وضاعت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه » .

١١٨ - التوبة

« إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم » .

٥٥ - التوبة

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » .

١٣٠ - البقرة

« ومن يوق شح نفسه فألك هم المفلاحون » . ٩٠ - الحشر

« وأحضرت الأنفس الشح » . ١٢٨ - النساء

« وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » ٥٣ - يوسف

فالنفس هي المتهمة في القرآن بالشح والوسواس والفجور والطبيعة الأمارة ، وللنفس في القرآن ترق وعروج ، فهي يمكن أن تتزكى وتطهر ، فتوصف بأنها لوامة وملهمة ومطمئنة وراضية ومرضية .

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » . ٢٧ - الفجر

أما الروح في القرآن فتذكر دائماً بدرجة عالية من التقديس والتزوية والتشريف ، ولا يذكر لها أحوال من عذاب أو هوى أو شهوة أو شوق أو تطهر أو تدنس أو رفعة أو هبوط أو ضجر أو ملل ولا يذكر أنها تخرج من الجسد أو أنها تذوق الموت . . ولا تنسب إلى الإنسان وإنما تأتي دائماً منسوبة إلى الله .

يقول الله عن مريم :

« فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » . ١٧ - مريم

ويقول عن آدم :

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .

يقول « روحي » ولا يقول روح آدم .

فينسب ربنا الروح لنفسه دائماً .

« وأيدهم بروح منه » أي من الله . ٢٢ - المجادلة

ويقول عن القرآن ونزوله على النبي عليه الصلاة والسلام :

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » . ٥٢ - الشورى

ويقصد بالروح هنا « الكلم الإلهي القرآني » .

« يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » ١٥ - غافر

« يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » .

٢ - النحل

والروح هنا هي الكلمة الإلهية والأمر الإلهي .

والروح دائماً تنسب إلى الله ، وهي دائماً في حركة من الله وإلى

الله ولا تجري عليها الأحوال الإنسانية ولا الصفات البشرية . .

ولا يمكن أن تكون محلاً لشهوة أو هوى أو شوق أو عذاب .

ولهذا توصف الروح بأوصاف عالية .

فيقول القرآن عن جبريل : إنه روح القدس . والروح الأمين .

ويقول عن عيسى أنه « كلمته ألقاها إلى مريم » وروح

منه . أي روح من الله .

أما النفس فهي تنسب دائماً إلى صاحبها .

« وما أصابك من سيئة فمن نفسك » . ٧٩ - النساء

« ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه » . ١٥ - الاسراء

« وضاعت عليهم أنفسهم » . ١١٨ - التوبة

« وما أبرئ نفسي » . ٥٣ - يوسف

« وكذلك سولت لي نفسي » . ٩٦ - طه

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . ٩ - الحشر

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » .

١٣٠ - البقرة

وحيثما تنسب النفس إلى الله فتلك هي الذات الإلهية .

« ويحذركم الله نفسه » . ٢٨ - آل عمران

ذلك هو الله الذي ليس كمثل شيء وهو مما لا يستطيع الإنسان أن يتخيل له شبيهاً ولا يصح أن نقيس النفس الإلهية على نفوسنا ..

فالنفس الإلهية هي غيب الغيب .

يقول عيسى لربه يوم القيامة :

« تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » .

١١٦ - المائدة

فالنفس الإلهية لا تتشابه مع النفس الإنسانية إلا في اللفظ ولكنها شيء آخر البتة ..

« ليس كمثل شيء » . ١١ - الشورى

« لم يكن له كفواً أحد » . ٤ - الإنحلاص

والسؤال إذن :

ما نصيب كل منا من الروح ؟

وماذا نعني حينما نقول إن لنا روحاً وجسداً ؟

ثم ما علاقة نفس كل منا بروحه وجسده ؟

أما نصيبنا من الروح فهو النفخة التي ذكرها القرآن في قصة خلق آدم .

« إني خالق بشرّاً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي

فقعوا له ساجدين » . ٧١ و ٧٢ - ص

وما حدث من أمر التسوية والتصوير والنفخ في صورة آدم يعود فيتكرر في داخل الرحم في الحياة الجنينية لكل منا . . فيكون لكل منا تسوية وتصوير ثم نفخة ربانية حينما تنهيا الأنسجة ويستعد الخلل لتلقى هذه النفخة ، وذلك يكون في الشهر الثالث من الحياة الجنينية - وينتقل الخلق بهذه النفخة من حال إلى حال . .

يقول ربنا عن هذه المراحل :

« ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . ١٤ و ١٥ - المؤمنون

فيقول عند النفخة : « ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . . إشارة إلى نقلة هائلة نقل بها المضغة المكسوة بالعظام إلى مستوى لا يبلغه ولا يقدر عليه إلا أحسن الخالقين . . وذلك بالنفخة الربانية .

ويتكلم عن هذا النفخ في الجنين بعد تسويته في آية أخرى عن نسل آدم .

« ثم جعل نسله من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » . ٨ و ٩ - السجدة

ونفهم من هذا أن السمع والبصر والفؤاد هي من ثمار هذه النفخة الروحية . . وإنه بهذه المواهب يتقل الإنسان من نشأة إلى إلى نشأة ومن مستوى إلى مستوى ، وهذا هو معنى . . « ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

إن نصيبنا من الروح إذن هو نصيبنا من هذه النفخة . . وكل منا يأخذ من هذه النفخة على قدر استعدادة .

وبفضل هذه النفخة يصبح للواحد منا خيال وضمير وقيم وعالم من المثل . . والجسد والروح فينا أشبه بأرض الواقع وسماء المثل .

وعلاقة نفس كل منا بروحه وجسده هي أشبه بعلاقة ذرة الحديد بالمجال المغناطيسي ذي القطبين .

والذي يحدث للنفس دائماً هو حالة استقطاب ، إما انجذاب وهبوط إلى الجسد إلى حمأة الواقع وطين الغرائز والشهوات ، وهذا هو ما يحدث للنفس الجسدانية الحيوانية حينما تشاكل الطين وتجانس التراب في كثافتها ، وإما انجذاب وصعود إلى الروح إلى سموات المثل والقيم والأخلاق الربانية ، وهو ما يحدث للنفس حينما تشاكل الروح وتجانسها في لطفتها وشفافيتها . . والنفس طوال الحياة في حركة وتذبذب واستقطاب بين القطب الروحي وبين

القطب الجسدى . . مرة تطفى عليها ناريتها وطيتها ومرة تغلبها شفافيتها وطهارتها .

والجسد والروح هما مجال الامتحان والابتلاء ، فتبتلى النفس وتمتحن بهاتين القوتين الجاذبتين إلى أسفل وإلى أعلى لتخرج سرها وتفسح عن حقيقتها ورتبتها وليظهر خیرها وشرها .

ومن هنا نفهم أن حقيقة الإنسان هي « نفسه » ، والذي يولد ويبعث ويحاسب هو نفسه ، والذي يمتحن ويبتلى هو نفسه ، وما يجرى عليه الأحوال والأحزان والأشواق هي نفسه . . أما جسده وروحه فهما مجرد مجال تماماً مثل الأرض والسموات في كونهما مجال حركة بالنسبة للإنسان لإظهار مواهبه وملكاته . . فكما أعطى الله لهذه النفس عضلات (جسداً) كذلك أعطاها روحاً لتتحيا وتعمل وتكشف عن سرها ومكنونها وتباشر خیرها وشرها .

وبهذا المعنى تكون كلمة « تحضير أرواح » كلمة خاطئة ، فالأرواح لا تستحضر ولا يمكن لأى روح أن تستحضر ، لأن الروح نور منسوب إلى الله وحده ، وهو ينبعث فينا هذا النور لتستنير به . . وهذا النور من الله وإلى الله يعود ولا يمكن حشره أو استحضره . . أما ما يحشر ويستحضر فهي الأنفس وليست الأرواح . . هذا إذا صح أن هؤلاء الناس يستحضرون

أنفساً في جلساتهم . . وأغلب الظن أن ما يحضر يكون من الجن المصاحب لهذه الأنفس في حياتها (القرناء) ، وكل من له في حياته قرين من الجن يصاحبه ، وهو بحكم هذه الصحبة الطويلة يعرف أسرارها ويستطيع أن يقلد صوته وإمضاءه ، وهذا الجن هو الذى يلبس الوسيط في غرفة التحضير المظلمة ، ويدهش الموجودين بما يحسبونه خوارق .

أما الأرواح فلا يمكن استحضرها .

أما الأنفس فلا يحشرها ولا يحضرها إلا ربها .

والنفس لا يمكن أن تتحول إلى روح وإنما هي في أحسن أحوالها ترتقى حتى تشاكل الروح وتجانسها بقدر ما تتخلق بالأخلاق الربانية ، ويقدر ما تقترب من المثال النوراني (الروح التي نفخها الله في الإنسان) .

كذلك يمكن لهذه النفس أن تتدنى وتهبط حتى تشاكل الشياطين وتجانس إبليس في ناريتها .

والنفس التي تتطهر وتترقى حتى تشاكل وتجانس الروح في لطفها هي التي يقربها الله من عرشه يوم القيامة ، وهي التي التي يقول عنها إنها ستكون . . « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

. . لأنها بهذا التطهر والترقى تصبح نفساً ربانية مكانها إلى
جوار الله .

أما النفوس المظلمة التي تهبط بفجورها وغلظتها إلى الدرك
الشیطاني فهم الذين يقول عنهم ربهم يوم القيامة :

« لانهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .

١٥ - المطففين

وهؤلاء سيكون مكانهم مع النفوس النارية السفلية في قاع
المظلمة والجحيم . أما الروح فلا مكان لها في جنة أو جحيم وإنما
هي نور من نور الله تنسب إليه ، وهي منه ولا يجرى عليها ابتلاء
ولا محاسبة ولا معاقبة ولا مكافأة . . وإنما هي المثل الأعلى
في الآية :

« والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » . ٦٠ - النحل

« وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .
٢٧ - الروم

وذلك عالم المثل النوراني الذي يستمد قدسيته ونورانيته من
من كونه من الله ومن أمر الله .

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم
من العلم إلا قليلاً » .

لماذا خلقنا الله؟

في كل لحظة منذ ميلاد الإنسان حتى موته . . منذ يقظته
في أول ساعات الصباح حتى دخوله في الفراش لينام . . وهو
يتعرض لامتحان تلو امتحان .

كل لحظة تطرح على الإنسان موقفاً وتتطلب منه اختياراً بين
بديلات .

وهو في كل اختيار يكشف عن نوعية نفسه وعن مرتبته
ومنزله دون أن يدري .

شهوته تناديه ليشبعها .

قد تكون شهوة إلى طعام ، أو شهوة إلى امرأة ، أو شهوة
إلى سلطة ، أو شهوة إلى جاه .

وإشباع أى شهوة يستدعى تأجيل الأخرى ، وتكشف النفس عن منزلتها بما تفضله وبما تعجل إليه من شهوات من أدنى السلم حيث الإنسان هو الحيوان الذى لا يشغله سوى شهوة بطنه أو عضوه التناسلى إلى الطاغية الجبار الذى لا شاغل له سوى شهوة التسلط على الآخرين ومحقهم واستغلالهم . . يكشف لك اختيارك عن نوعك ومنزلتك ورتبتك .

ويقول لك سلوكك . . من أنت . . بين هؤلاء الشهوانيين . . وأى نوع من الحيوان أنت . . فإذا رفضت هذه الشهوات جميعها واستجبت لنداء المنطق والاعتدال . . فأنت من أهل النظر والعقل وأنت إنسان ولست حيواناً .

ولكن الإنسانية أيضاً درجات والعقل درجات .

وأدنى درجات العقل هو العقل المادى البحت الذى لا يعترف إلا بالواقع المحدود الذى يراه ويعيشه وينكر تماماً ما وراء هذا الواقع الملموس المحسوس .

ويكاد يكون هذا العقل عضواً ملحقاً بالحيوان الذى حكينا عنه يعمل فى خدمة شهواته . وذلك بالتماس المبررات واصطناع المنطق والذرائع لاقتناص الذات .

فإن احتكمت فى سلوكك لهذا العقل فأنت مجرد حيوان متطور تستخدم طائفة المسدس بدلا من الخالب ، وتتأمر بالعقول الألكترونية بدلا من الانطلاق وراء غضب عشوائى غير محسوب .

ولكن النتيجة مازالت واحدة . . إنك مجرم . . وحياتك هى مخطط إجرامى . . مهما بدت فى ظاهرها مهذبة معقولة ومنطقية .

ألم يقتل ستالين خمسة ملايين فلاح . . ألم يفعل ذلك بحجة منطقية أنه إنما يقتل الرجعية ويدفع بعجلة التاريخ إلى الأمام . . وأنه إنما يقتل الفلاح لنصرة الفلاح .

تلك إذن هى أدنى درجات العقل وأخس منزلة من منازل العقلاء .

فإذا ارتقيت درجة فأنت تستشعر بشئ وراء الواقع .

ولكن هذا الاستشعار لا يزيد عن شبهة وظن . .

ولكن هذه الشبهة وهذا الظن يؤديان بك إلى أن تكون أقل مادية وأقل ظلماً وأقل صلفاً وأقل غروراً وأقل اقتناعاً بالمنطق المقفل وبالواقع الغليظ المحدود .

وبين حين وآخر سوف تظهر عليك بدوات وسوانح تضحية
وكرم .

وسوف تعطيك لمسة الغيب بعض المواقف الشاعرية .

وسوف تتأرجح بين هذه المنازل على حسب ما في نفسك من
خير . . وما في عقلك من نور .

فإذا ارتقيت أكثر فإن الاستشعار الروحي للغيب والإحساس
الصوفي لما وراء الواقع سوف يغلبان على عقلك المسجون في
في زنزانة الماديات ، وسوف تنفتح لك نوافذ من البصيرة والحكمة
تضيء الظلمة التي ترين عليك من غواشي الحس وسوف يبدو
كرم الخلق كأنه طبعك .

ولكن استشعار الغيب لم يرتفع بعد ليصبح يقيناً . . وإنما هو
مجرد ترجيح .

فإذا حدثك أحد عن وجود الله فأنت تميل إلى تصديقه . .
ولكن ليس لدرجة أن تصلي وتصوم وتدين بالعبادة .

وغاية ما تبلغ إليه من حال . . أن تعتقد أن هناك نعمة قوة وراء
الأشياء . . وأنتك تحشى هذه القوة .

ولكن ماعدا ذلك غير واضح واهتمامك بالدنيا يغطي على
هذا الإحساس . . وأنت تمضي في حياتك تحاول أن تحقق أقصى
النفع ولكنك تتحرى ألا تؤذي أحداً .

فإن ارتقيت أكثر فإن الاستشعار الروحي يتضح أكثر
وغواشي الحس تنحسر عنك أكثر وأكثر ، ويخالجك اليقين
بأنك لست وحدك . . وبأنك لم تكن أبداً وحدك . . وإنما
كان الله دائماً معك وأنت تسمى هذه القوة لأول مرة باسمها
الديني . . الله . . وتصفها بما وصفتها به الكتب السماوية من أسماء
حسنى . . وتسند إليها العناية والخلق والوحي .

وتتفاوت المراقى في هذه الرتبة الشريفة من المؤمن العادي
الذي يصلي ويصوم ويتحرى الخير ، ولكن نفسه تغالبه إلى السقوط
في الدنيا بين حين وآخر . . إلى المؤمن صاحب الإيمان الرفيع
الذي يعيش في شهود وحضور وامتنال للذات الإلهية على الدوام
فيعبد الله كأنه يراه .

ومتزلتك في كل درجة من هذه الحالات يشهد عليها سلوكك
.. فإذا كنت من أهل هذا الإيمان الرفيع فلا بد أن تكون من أهل
الإحسان . . تتقن كل عمل يوكل إليك دون نظر إلى مكافأة . .
وتعامل أعداءك بالتسامح والنصح وتجاهد الباطل بيدك وقلبك

ولسانك ولا تخشى في الحق لومة لائم وترجر شهواتك وهي
ما زالت همساً في الخاطر وقبل أن تنمو إلى دوافع وأعمال .

ولا حقيقة لحال إلا إذا شهد عليه عمل ، ولهذا يقلبك الله بين
المواقف بين لحظة وأخرى من لحظة تصحو إلى لحظة تنام وكل
لحظة تضعك في موقف .

وكل موقف يتطلب منك اختياراً بين بديلات ، ولا يعفيك
من الامتحان ألا تختار . . لأن عدم الاختيار هو في ذاته نوع
من الاختيار . . ومعناه أنك ارتضيت لنفسك ما اختارته لك
الظروف أو ما اختاره أبوك أو ما اختارته شلة أصحابك الذين أسلمت
نفسك لهم .

ويعنى هذا أن الحياة تعريك في كل لحظة وتكشف حقيقتك
وتترع عنك قشرك لتخرج مكنونك ومكنومك .

والمكر الإلهي هنا هو أن يضعك في موقف بعد موقف
ومشكلة بعد مشكلة . . وكل مشكلة تتطلب حلاً . . وكل حل يتطلب
اختياراً . . وكل اختيار يكشف عن حقيقتك رغماً عنك مهما
حاولت الاستخفاء .

وبقدر ما تمتد حياتك يوماً بعد يوم . . بقدر ما تتمزق عن
وجهك الأقنعة . . ويظهر ويفتضح أمرك وينتهك سرك .

والله يعلم حقيقتك وسرك من البداية . . ولكنك أنت لا تعلم
ولا تريد أن تعلم . . لأنك مدع . . وكل منا مدع . .

كل منا يتصور أنه رجل طيب وأنه مستحق لكل خير ،
حتى الجبارون الذين شنقوا وسجنوا وعذبوا شعوبهم تصوروا
أنهم مصلحون .

كل منا جاء إلى الحياة ومعه دعوى عريضة مزعومة بأنه
رجل صالح وطيب .

ولهذا اقتضى عدل الله أن يطلعنا على حقائقنا حتى لا نقوم
أعدار حينما يبدأ تصنيف الناس في الآخرة حسب درجاتهم . .
وحتى يكون التصنيف على حسب الحقائق وليس على حسب
المزاعم والدعاوى .

ولهذا خلق الله الدنيا .

خلقها لتكشف الحقائق على ما هي عليه . . ويعرف كل
واحد نفسه ويعرف مقدار خيره وشره . . ثم ليعرف الأبرار
خالقهم وربهم وليذوقوا رحمته قبل لقائه .

ثم خلق الآخرة لتكشف فيها فيها حقائق الربوبية وعالم
الملوكوت والجبروت والغيب .

والله لا يخلق أى شىء إلا بالحق وللعق ، لأنه سبحانه هو الحق .

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق »

٨٥ - الحجر

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعين »

٣٨ - الدخان

« ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون »

٣٩ - الدخان

« ما خلق الله ذلك إلا بالحق » ٥ - يونس

« خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون »

٣ - النحل

« ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل

مسمى ٨ - الروم

« وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتنجزى كل نفس

بما كسبت » ٢٢ - الجاثية

« خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم »

٣ - التغابن

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً »

٢ - الملك

« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانهك » ١٩١ - آل عمران

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون »

١١٥ - المؤمنون

لا عبثية ولا عبث . . .

وما نرى حولنا من تداول الأحوال على الناس من فقر إلى

غنى إلى مرض إلى عز إلى ذل إلى حوادث مفاجئة إلى مصائب

إلى كوارث إلى نجاح إلى فشل ، ليست أموراً عبثية ولا مصادفات

عشوائية ، إنما هي ملابسات محكمة من تدبير المدبر الحكيم الذى

يريد أن يفض مكنون النفوس ويخرج مكنومها .

« والله مخرج ما كنتم تكتمون » ٧٢ - البقرة

إننا جميعاً شجعان حتى يدعو داعى الحرب فيبذى كل واحد

عذراً ويختلق كل واحد ظروفاً تمنعه ولا يثبت ساعة الضرب

إلا القليل .

ولولا محنة القتال ما انكشفت النفوس على حقيقتها ، ونحن

جميعاً كرماء حتى يدعو داعي البذل ، فتتكش الأيدي التي كانت
ممدودة بدعوى السخاء ولا تنبسط بالكرم إلا أكف معدودة .

وكما قال المتنبي :

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتال

فالمشقة هي التي كشفت النفوس وفضحت دعاويها ، ومن
هنا جاءت ضرورتها .

وما كنا لنعرف صلابة الصلب لولا اختباره .

ولهذا خلق الله الدنيا ليعرف الضعيف ضعفه ، ويعرف
القوى قوته ، ولتفصح الدعاوى الكاذبة ، ويتم العدل باقتناع
كل نفس باستحقاقها وبعدالة مصيرها النهائي في أعلى عليين
أو أسفل سافلين .

خلق الله الدنيا ليحق الحق ويبطل الباطل .

ويصدق أيضاً الكلام الذي يقول . . إن الله خلقنا ليعطينا .
فهو كلام يؤدي بنا إلى نفس المعنى .

فهل يصح عطاء إلا بمعرفة الاستحقاقات أولاً ليكون العطاء
حقاً .

إن معرفتنا لأنفسنا أيضاً مطلوبة لتكون قناعة كل واحد
بعطاءه قناعة حقيقية . . ولينتفى الاعتراض .

فعرفة النفوس لحقائقها . . ومعرفة الإنسان لحالقه . . هي
الحكمة من خلق الدين .

« خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً »

٢ - الملك

وما كانت هذه المعرفة لتتم إلا بالدم والدموع ، لأن النفوس
ما كانت لتبوح بأسرارها وحقائقها إلا بالدم والدموع .

ولأن كلا منا يخفى حقيقته وراء أقنعة غليظة من الشعارات
والأكاذيب ، ويسدل على وجهه حجاباً من الافتعال والتشيل
وبسمات النفاق والملاطفة والمجاملة .

فكان لا بد من حادث عنيف ليخترق هذه الحجب .

والدنيا كانت ذلك الحادث .

لقد أخرجنا الله من العدم وكان كل منا حقيقة مكنونة
وأعطى كلا منا اليد والقدم ليضر وينفع .

فأما الذين تحروا النفع والبر والخير فهم أهلهم . . ومأواهم
إلى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وأما أهل الضرر والأذى والظلم فهم المبعدون عنه وعن رحمته . . . والبعد عن الله نار . . . لأن كل ماسوى الله نار . . .

وعلاوة أهل الله هي عرفاتهم لربهم من قبل لقائه . . . أن يعرفوه في هذه الدنيا . . . وأن يشهدوا الدنيا دالة عليه .

وكلام القرآن بأن الله خلقنا لتعبده هو كلام يشتمل على كل هذه المعاني السالفة في باطنه .

وحينما تقول الآيات :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ٥٦ - الذاريات

فإنها تعني بداهة .

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفون » .

لأنه لا عبادة بلا معرفة .

والمعنى أنه خلقنا لنعرفه ، فإذا عرفناه عبدناه . . . وإذا عبدناه تفاضلت عبادتنا ، وتفاضل إيماننا وإنكارنا ، وتفاضلت منازلنا . . . وبالتالي تفاضلت استحقاقاتنا حسب ما نتعرض له من امتحانات في الدنيا . . . وبالتالي تفاضل العطاء من المعطى :

وعطاء الله مبدول للكل .

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » ٢٠ - الإسراء

فإن الله خلق ليعطى . . . وكلنا مستحقون للعطاء بحكم رتبة العبودية ، وكل هذه المعاني باطنة في كلمة « ليعبدون » .

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ٥٦ - الذاريات

أما الذى يقول إن الله خلقنا لأنه خلق ولا بد للخالق أن يخلق ، فقد أوجب على الله أن يخلق هذا أو يخلق ذاك . . .

ولا حق لأحد أن يوجب على الله شيئاً .

ولا يوجد قانون يوجب على الله شيئاً .

لأنه لا توجد سلطة أو حكم خارج عن الله أصلاً ، وإنما الله يخلق ما يشاء .

ومشيئة الله لا تحدّها قوانين . . . لأنه سبحانه مصدر جميع القوانين .

والمشيئة مردودة إلى الله وبالتالي ليست مسببة بحيث يمكن أن نسأل : ولماذا خلق الله هذا ولم يخلق ذاك ؟

إن « لماذا » هنا لا مكان لها بتاتاً ولا يصح أن توجه .

سبحانه « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ٢٣ - الأنبياء

وكنه المراد لا يعلمه أحد .

والسؤال يقال بوجه إجمال .

ومجال التأمل هو في الحكمة العامة للخلق وللدنيا .

أما السؤال تفصيلا عن خلق هذا وخلق ذاك ، فهو أمر غيبي . . وهو في العمى لا يعلمه أحد .

يقول الصوفي ابن عربي . . إن الله خلق هذا وخلق ذاك لأنهما سألاه في العدم أن يرحمهما بإيجادهما فأوجدتهما . . وأن الله لا يأتي بأحد إلى الدنيا كرها . . وإنما كل ما جاء إلى الدنيا جاء بطلبه .

وهو كلام غيبي .

وهو كلام يستتبع أنه كان لنا وجود في العدم . . وأن العدم غير معدوم .

وهو كلام يجزئنا مرة أخرى إلى المعضلة التي أثارها في كتابي « الوجود والعدم » .

ولمن يريد أن يغوص وراء الأسرار أكثر أن يعود إلى الكتاب .

وحسب المؤمن الذي يريد أن يقف عند بر الأمان ولا يلتقي
بنفسه في وادي العناء . . أن يقول :

آمنت بكلمات الله على مراد الله .

وما نخفي عنى فالله به أعلم .

الصوفي والبحر

مد الرجل ساقه في استرخاء لذيل ونظر إلى البحر المديد
الأزرق كأنه يشربه ويشرب لونه . وترك روحه ترضع من هذه
الشفافية اللؤلؤية والأنوار المتشعة الذائبة في المياه .

شيء ما في ذلك البحر كأن يبدو لعينه وكأنه من وراء العقل
ومن وراء الحس . . شيء كالغيب يسطع من خلال المظاهر .

وتذكر كلمات ذلك الصوفي الذي قال أنه اشتاق إلى ربه
وأنه احترق إليه شوقاً وكاد عقله يهلك عجزاً عن بلوغه لولا أن
نور الله كان يلوح له من وراء أستار الغيب ومن خلال الجمال
المتجلى في الوجود فيروى ظمأه بين الحين والحين .

وذلك هو الشرب والسكر الذي يحكي عنه الصوفية .

شرب الجمال المتجلى في الوجود .

ذلك الشرب المغيب الذي يترك الروح نشوانة هيانة تهتف . .
الله . . الله .

وقد أدرك صاحبنا في جلسته أمام البحر لأول مرة ذلك المعنى
البعيد الذي حكى عنه الصوفية . . وشعر بذلك الشرب المغيب . .
وهتفت روحه النشوانة وقد أدركت طرفاً من تلك الحضرة الإلهية
المتجلية في الأشياء . . هتفت ههنا سكرانة . . الله .

لقد اتصلت روحه لأول مرة بنبع الحسن ومصدر الفتنة
وسر الجلال والجمال في الأشياء . . وبأشرف تلك الرجفة الكهربائية
وأحسن بتلك الرعشة الروحية وهو يلامس السر الساري في الوجود
وفي نفسه .

وذلك هو حضور المحبوبة المعشوقة التي كان يسأل عنها
الحب الهيمان طول الوقت ويبحث عنها ويرتحل إليها وهي طول
الوقت معه دون أن يدري . . في سواد عينيه . . وفي حنايا
ضلوعه . . وأقرب إليه من جبل الوريد .

وَمَنْ عَجِبَ أَنِّي أَحْنُ إِلَيْهِمْ
وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَى وَهُمْ مَعِي
وَتَرْصِدُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا
وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْغَعِي

فما كان الحسن والجمال والفتنة التي لمح طرفاً منها في الشفاه
الشفاه والحدود والقدود إلا مدداً من ذلك الغيب المغيب ، ولا كان
إلا تجلياً لذات الحسن المتفردة . . « الذات الإلهية » التي هي
أقرب إليه من نفسه وأقرب إلى عينه من سوادها وأقرب إلى لسانه
من نطقه .

إن ليلاه فيه . . وهو يقطع البوادي بحثاً عنها .

« وذات الحسن المتفرد » التي أفاضت من حسنها البديع على كل شيء . . . أقرب إليه من حبل الوريد ، وأوثق اتصالا به من دمه في شرايينه :

وحينما يدرك الصوفي ذلك يصيبه برد السلام ، ويهدأ في جوانحه طائر القلب ، وتنشر عليه السكينة لواءها ، ويصبح صاحب الوجه النوراني والنفس المطمئنة الذي لا تزلزله الزلازل ولا تحركه النوازل .

شعر صاحبنا بتلك الأنوار وهو جالس أمام البحر وأمامه
قطف من عنب مثلج . . ورأى كل حبة عنب وكأنها تختزن داخلها
نوراً . . وحينما ذابت في فمه برداً وحلاوة شعر كأنما تعطيه سرها
وتبوح له بمكنونها . . وكان في تذوقه لحلاوتها شيئاً كالعبادة . .

وكأنما كان ربه هو الذي يطعمه ويسقيه مباشرة ودون وساطة
ويتناوله من كفه الرحمانية ليأكل ويشرب ..

وتذكر قول عميد العشاق الإلهيين ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فوصف الشاعر خمر الكرم من قبل أن يخلق الكرم . وتلك
هي خمر السر المودع في الأشياء من قبل أن تخلق الأشياء .

تلك هي خمر « فإذا نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » ..
خمر الأنوار المودعة في الأشياء .

وكل مؤمن مازال يعاود السجود مثل الملائكة كلما استشعر
هذه الأنوار . . وكلمها بأمر سرها وذاق حلاوتها سجدت جوارحه
وهتفت نفسه . . الله . . الله .

وشوش له البحر بهذه الكلمات وكاشفه بتلك الأصرار وهو
يهده به بأمواله ويتناثر كحبات الماس على وجهه وساقيه .

وبقدر ما كانت صفحة البحر تبدو له هادئة ساكنة مطمئنة . .
كان باطن البحر يقول له . . باطني وسع العالمين . . وسع الحياة
والموت . . وسع كل شيء علماً .

كان البحر أشبه بالرمز المهموس والإشارة الدالة والمثل
المضروب على القدرة .

« مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج
كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية
ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار »

ذلك هو الضوء في المصباح ، والتؤلؤة في الصدفة ، والروح
في الإنسان ، والجمال في البحر ، وتلك هي النفخة التي تدل على
النافع « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » .

فالزيت يسرى فيها من الذات المباركة التي تضيء بذاتها بدون
حاجة إلى نار تشعلها . . الذات التي نورها مصدر كل الأنوار .

وتلك هي الشجرة المباركة المتزهة عن الجهات . . فلا هي شرقية
ولا هي غربية . . فهي فوق المكان والزمان ومتزهة عن الأسباب ،
فهي تضيء بلا نار . . تلك هي الذات الإلهية المتعالية على الصور
.. ومع ذلك تنجلي في كل الصور .

« هو الظاهر والباطن » .

ظاهر في البحر والشمس والنجوم وفي وجوه الحسان
ولكنه غيرها جميعاً .

هو الظاهر سبحانه ولكنه ليس المظاهر .

وتلك هي الفتنة التي يقع فيها المؤمن والكافر .

تقول له المظاهر الجميلة وهي تدعوه إلى نفسها بجمالها .

« إنما نحن فتنة فلا تكفر » .

فإذا افتتن بها ووقع في أسر جمالها وعبدها وقع في الشرك الخفي وهلك .

وذلك هو حال الأغلبية والكثرة من عشاق المظاهر وعباد المال والجاه والنساء .

وإذا أدرك أن فتنتها ليست منها ولكن من الله المتجلى فيها . . .
وأنها كالمصابيح في زجاجات ، ولكنها مصابيح لا تضيء بذاتها ، وإنما بمدد وأسلاك من شجرة مباركة هي التي تأتي منها الإنارة لكل المصابيح . . . إذا أدرك ذلك تجاوز بعبادته كل المظاهر وكل المصابيح المنيرة ، وتوجه إلى الله الذي ينيرها كلها بنوره . . .
وخرج من زحام الكثرة إلى صفاء الوحدة . . . واختص الله وحده دوناً عنها بالعبادة . . . وإذا فعل ذلك نجى . وذلك حال القلة من العارفين .

وهذا سر الدنيا . . . ولهذا خلقها الله . . . لتمتحن بإغراءها معادن النفوس ويتميز بها العارف من الجاهل . . . وتميز بها المراتب

والمنازل والدرجات . . . ويعرف بها أهل الصدق صدقهم وأهل الكذب كذبهم حينما تنشر الأعمال وتهتك الأسرار في يوم الحشر ويوم التغاين الذي لا ينفع فيه ادعاء الأدعياء . . . يوم يشعر كل إنسان أنه غبن نفسه حينما تعجل لذة تافهة وزائلة لا تساوي شيئاً وحرم نفسه من ميراث جنة لا تنفذ لذائذها .

وشوش له البحر . . . وهمس الموج .

وتناثر كالماس على وجهه وقدميه .

واتصل السر بالسر .

ومضى الحوار .

مَنْ أَنْتَ؟

من أنت . . حينما تتردد لحظة بين الخير والشر . . من
تكون . . ؟ !

أتكون الإنسان الخير أم الشرير أم ما بينهما . . ؟ !

أم تكون مجرد احتمال للفعل الذي لم يحدث بعد . . ؟ !

إن النفس لا تظهر منزلتها ولا تبدو حقيقتها إلا لحظة أن تستقر
على اختيار وتمضي فيه باقتناع وعزم وإصرار ، وتهادى فيه وتخلد
إليه وتستريح وتجد ذاتها .

ولهذا لا تؤخذ على الإنسان أفعال الطفولة أو أفعال المراهقة
ولا ما يفعله الإنسان عن مرض أو عن جنون أو عن إكراه . . .

ولأنما تبدأ النفس تكون محل محاسبة منذ رشدها ، لأن بلوغ الرشـد يبدأ معه ظهور المرتكزات والمحاور التي ستتمو عليها الشخصية الثابتة .

واختيارات الإنسان في خواتيم حياته هي أكثر ما يدل عليه ، لأنه مع بلوغ الإنسان مرحلة الخواتيم يكون قد تم ترشح وتبلور جميع عناصر شخصيته وتكون قد انتهت ذبذبتها إلى استقرار وتكون بوصلة الإرادة قد أشارت إلى الطابع السائد لهذه الشخصية .

ولهذا يقول الصوفيون . . العبرة بالخواتيم . . وما يموت عليه العبد من أحوال وأعمال وما يشغله في أيامه الأخيرة هو ما سوف يبعث عليه . . تماماً كما ينام النائم فيحلم بما استقر في بـاله من شواغل لحظة أن رقد لينام .

ولهذا أيضاً لا تؤخذ النفس بما فعلته وندمت عليه ورجعت عنه ، ولا تؤخذ بما تورطت فيه ثم أنكرته واستنكرته ، فإن الرجوع عن الفعل ينفي عن الفعل أصالته وجوهريته ويدرجة مع العوارض العارضة التي لا ثبات لها .

وقد أعطى الله للإنسان مساحة كبيرة هائلة من المنازل والمراتب . . يختار منها علواً وسفلاً ما يشاء . . أعطاه معراجاً عجيباً يتحرك فيه صاعداً هابطاً بلا حدود . . ففي الطرف الصاعد

من هذا المعراج تلتطف وترق الطبائع وتصفو المشارب والأخلاق حتى تضاهي الأخلاق الإلهية في طرفها الأعلى (وذلك هو الجانب الروحي من تكوينه) وفي الطرف الهابط تكثف وتغلظ الرغبات والشهوات وتتدنّى الغرائز حتى تضاهي الحيوان في بهيميته ثم الجحاد (في جموده وآليته وقصوره الذاتي) . . ثم الشيطان (في ظلمته وسلبيته) وذلك هو الجانب الجسدي الطيني من التكوين الإنساني .

وبين معراج الروح صعوداً ومنازل الجسد والطين هبوطاً ، تتذبذب النفس منذ ولادتها ، فتتسامى هنا وتردى هناك بين أفعال السمو وأفعال الانحطاط ، ثم تستقر على شاكلتها وحقيقتها . « قل كل يعمل على شاكلته » .

ومنى يبلغ الإنسان هذه المشاكلة والمضاهاة بين حقيقته وفعله فإنه يستقر ويتأدى ويمضي في اقتناع وإصرار على خبره أو شره حتى يبلغ نهاية أجله .

ومعنى هذا أن النفس الإنسانية أو « الأنا » . . هي شيء غير الجسد . . وهي ليست شيئاً معلوماً بل هي سر وحقيقة مكنونة لا يحلوها إلا الابتلاء والاختبار بالمغريات .

وما الجسد والروح إلا الكون الفسيح الذي تتحرك فيه تلك النفس علواً وهبوطاً بحثاً عن المنزل التي تشاكلها وتضاهيها والبرج

الذى يناسب سكناها فتسكنه . . فئنا من يسكن برج النار
(الشهوات) وهو مازال فى الدنيا ، فلا يبرح هذا البرج حتى
المات ، فتلك هى النفس التى تشاكل النار فى سرها وهى التى
سبق عليها القول والعلم بأنها من أهل النار .

وذلك علم سابق عن النفوس لا يتاح إلا لله وحده ، لأنه
وحده الذى يعلم السر وأخفى ، فهو بحكم علمه التام المحيط يعلم أن
هذه الحقيقة المكنونة فى الغيب التى اسمها فلان والتى مازالت
سراً مستترأ لم يكشفه الايتلاء والاختبار بعد والتى لم تولد بعد ولم
تنزل فى الأرحام . . يعلم ربنا تبارك وتعالى بعلمه المحكم المحيط أن
تلك النفس لن تقر ولن تستريح ولن تختار إلا كل ما هو نارى
شهوانى سلبى عدى . . يعلم عنها ذلك وهى مازالت حقيقة مكنونة
لاحيلة لها ولا وجود إيجابى فى العدم .

وهذا العلم الربانى ليس علم إلزام ولا علم قهر بل هو علم حصر
وإحاطة ، فإله بهذا العلم لا يجبر نفساً على شر ، ولا ينهى نفساً عن
خير ، فهو يعلم حقائق هذه الأنفس على ما هى عليه دون تدخل .

فإذا جاء ميقات الخلق (وجميع هذه الأنفس تطلب من الله
أن يخلقها ويرحمها بإيجادها وهى مازالت حقائق سلبية فى العدم)
أعطى الله لتلك النفس اليد والقدم واللسان لتضر وتنفع وأعطاها

ذلك الكون القسيح الذى اسمه الروح والجسد لترح فيه صاعدة
هابطة تختار من منازلها ما يشاكلها لتسكن فيه . . فإذا سكنت
واستقرت وتسجلت أعمالها قبضها الله إليه إلى يوم البت والحساب
المعلوم . . حيث تقرأ كل نفس كتابها وتعلم منزلتها فلا يعود لأحد
العدر فى أن يحتاج بعد ذلك حيناً يضعه الله فى مستقر الجنة
أو مستقر النار الأبدية .

وقد أعذر الله وأنذر الجميع من قبل ذلك بالرسل والكتب
والآيات ، وأقام عليهم الحجة بما وهبهم من عقل وضمير وبصيرة
وحواس تميز الضار من النافع والخبيث من الطيب .

ولهذا حينما تطالب النفوس المجرمة فى النار أن تعطى فرصة
أخرى وأن ترد إلى الدنيا لتعمل الصالحات ، وحينما يدعى البعض
أن تعذيب تلك النفوس أبدياً على ذنوب مؤقتة ارتكبتها فى الزمن
المحدود هو أمر ظالم .

حينئذ يجيب ربنا متحدثاً عن هؤلاء المجرمين قائلاً :

« ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وأنهم لكاذبون » .

٢٨ - الأنعام

وفى هذا الرد البليغ إشارة إلى أن أجرام تلك الأنفس لم
يكن ذنباً موقوتاً فى الزمن . . بل إنهم ليعادون هذا الجرم

في كل زمن ومهما عاود الله خلقهم . . لأن ذلك الأجرام حقيقة
مكتونة وليس عرضاً محدوداً بالزمان والمكان . . ولهذا كان عقابه
الأبد وليس العذاب الموقوت .

ونقول أيضاً أن هناك عدالة عميقة كامنة في هذا المصير . .
ناراً أبدية أم جنة . . إن كل نفس بينها وبين ذلك المصير النهائي
مشاكلة تامة ومضاهاة وائتلاف في الحقائق . . فالحقائق النارية
تسكن النار والحقائق النورانية تسكن الجنة . . فلا قسوة هناك
ولا وحشية ، إنما وضع لكل شيء في مكانه .

والسر الآخر الذي ينكشف لنا أن البيئة لا يمكن أن تصنع
من إنسان صالح (نفسه صالحة بالحقيقة) إنساناً مجرمًا ولا العكس
وأن الكلام على أن مظالم المجتمع جعلت فلاناً لصاً ، هذا الكلام
لا يصدق دينياً ولا واقعياً . . فالمجتمع يضع للجريمة إطارها فقط
ولكن لا ينشئ جريمة في إنسان غير مجرم . . بمعنى أن لص هذا
الزمان تعطيه إمكانيات العصر العلمية وسائل الكترونية وأشعة ليزر
ليفتح بها الخزائن ، بينما نفس اللص منذ عشرين سنة لم يكن يجد
إلا طفاشة . . كما أن قاتل اليوم يمكن أن يستخدم بندقية مزودة
بتلسكوب (كما فعل قاتل كينيدي) بينما هو في أيام قريش
لا يجد إلا سيفاً ، ثم قبل ذلك بعدة قرون لا يجد إلا عصاً ، ثم
قبل ذلك على أيام قاييل وهابيل لا يجد إلا الحجارة .

إن المجتمع والعصر والظروف تصنع للجريمة شكلها ولكنها
لا تنشئ مجرمًا من عدم ولا تصنع إنساناً صالحاً من نفس لا صلاح
فيها .

وبالمثل لا يستطيع الأبوان بحسن تربيتهما أن يقلبا الحقائق
فيخلقوا من ابنهما المجرم ابنًا صالحاً ولا العكس .

ونجد في سورة الكهف حكاية عن غلام مجرم كافر ، أبواه
مؤمنان .

« وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً
وكفراً » . ٨٠ - الكهف

وأكثر الأنبياء كانوا من آباء كفرة واستجابت أكثر الأقوام
لهؤلاء الأنبياء ولم يستجب الآباء .

من الذي يستطيع أن يقلب حقائق الأنفس ويغيرها . لا أحد
سوى الله وحده .

والله لا يفعل ذلك إلا إذا طلبت النفس ذاتها أن تتغير
وابتهلت من أجل ذلك ، لأنه واثقنا جميعاً على الحرية التامة وعلى
أنه لا إكراه في الدين . . وأن من شاء أن يكفر فليكفر ومن شاء

أن يؤمن فليؤمن . . وأنه لن يقهر نفساً على غير هواها . . وأنه
لن يغير من نفس إلا إذا بادرت بالتغير وطلبت التغير .

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وتلك هي التزكية .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً
ولكن الله يزكي من يشاء » .

وعلى الإنسان أن يبدأ بتزكية نفسه وتطهيرها .

« قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

« ومن تزكى فإنما يتركي لنفسه » .

ولا سبيل إلى تطهير النفس وتزكيته إلا بإتقان العبادة والتزام
الطاعات وإطالة السجود وفعل الصالحات .

وبحكم رتبة العبودية يصبح الإنسان مستحقاً للمدد من ربه
فيملئه الله بنوره ويهيء له أسباب الخروج من ظلمته .

وذلك هو سلوك الطريق عند الصوفية بالتخلية (تخلية النفس
من الصفات المذمومة) والتحلية (تحلية القلب بالذكر والفضائل)
والتعلق والتخلق والتحقق .

والتعلق عندهم هو التعلق بالله وترك التعلق بما سواه .

والتخلق هو محاولة التحلي بأسمائه الحسنى ، الرحيم والكريم
والودود والرهوف والحليم والصبور والشكور . . قولاً وفعلًا .

والتحقق هو أن تصل إلى أقصى درجات الصفاء واللطيف
والمشاكلة ، فتصبح ربانياً في طباعك أو تكاد .

ولا سبيل إلى صعود هذا المعراج إلا بالعبادة والطاعة والعمل
الصالح والتزام المنهج القرآني والسلوك على قدم محمد العبد الكامل
والعارف الكامل عليه صلوات الله سلامه .

والذي يعلق على هذا الكلام فيقول :

قولك عن النفس أنها « السر » هو كلام أغمضت فيه وألغزت
وحجبت وما كشفت .

أقول له إن نفساً فيها القابلية للحركة على جميع تلك المعارج
صعوداً وهبوطاً وفيها القابلية أن تكون ربانية أو شيطانية أو حيوانية
أو جمادية .

نفس بهذه الإمكانيات هي « السر الأعظم » ذاته .

ومن ادعى أنه أدرك السر الأعظم ؟ ! !

إن هي إلا أصابع تشير .

والمشار إليه لا يعلمه إلا الله .

ونحن جميعاً لا نعلم .

أسلوب خطبة الجمعة

في هذا الجزء الأخير من القرن العشرين . . والأقمار الصناعية تدور في الفضاء ، والصواريخ تنطلق إلى الشمس ، والصور تنتقل بالتلستار ، والأخبار تطير بالتلكس ، والأعمى يتحسس طريقه بعقل الكتروني ، والغواصة تشق ظلمة الأعماق بمحرك ذري . . وسط هذا الغمر الهائل من الوسائل العلمية والتحديات التي تبهر العقل ، نرى شيخ الجامع يخاطب الناس من على منبر القرون الخوالي وكل ذخيرته في الدعوة إلى الإسلام هي تهديد المؤمنين البسطاء الذين سعوا إليه بأن مصيرهم الحرق في جهنم ، وبأن من يلبس من زوجاتهم نصف كم سوف تشوى أذرعهن في النار ، ومن يتأخر في صلاته ليؤديها قضاء سوف يلقي به في برميل من الزفت المغلي ، ومن يدخر نقوده في بنك سوف يرشق بالأسياخ

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم » .

وتتكرر كلمة العلم ومشتقاته في القرآن ثمانمائة وخمسين مرة .

هذا هو الإسلام . . وهذه دعوته . . وليست براميل الزفت والقطران ولا الشوى في جهنم .

وحينما كنا نفهمه على حقيقته خرج منا العلماء العظام أمثال ابن سينا في الطب ، وابن رشد في الفلسفة ، وابن الهيثم في الرياضيات ، وجابر بن حيان في الكيمياء ، وابن النفيس في التشريح . . وكان الإسلام عطاء ونوراً أفضناه على الدنيا .

والإسلام لا يخشى هجوم العقل بل يدعو إليه .

وهذا يحتم على الدعوة العصرية للإسلام بأن ترد بالعقل والجدل والعلم ، وليس بالثتم على المذاهب والتحديات الجديدة ، أمثال الفكر المادي والفكر الشيوعي . . فديننا هو الدين الوحيد الذي حبيب للمؤمن بالنص الصريح أن يعمل على قدر طاقته ويأخذ على قدر حاجته .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

« يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » .

والعفو هو مازاد عن الحاجة .

وهو الذي قال بنص صريح أن الأموال لا يصح أن تكون دولة بين الأغنياء وحكراً لطبقة يستمتعون بثمارها ، وإنما يجب أن تفيض ثمارها على الكل .

ولكنه كان في تشريعه الاقتصادي أكثر تفوقاً وإنسانية من

المذاهب المادية ، لأنه استمد سلطاته من ضمير المؤمن وليس من قهر السلطة وإكراه القوى البوليسية ، وجاءت نصوصه الصريحة تؤكد على عدم تأليه الحاكم .

« ذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » .

« ما أنت عليهم بجبار »

« لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

« إنما المؤمنون إخوة » .

وجعل من حرية الفرد وكرامته وأمنه قيمة تعدل في وزنها وزن الإنسانية كلها . . فقتل نفس واحدة بريئة هي في القرآن مثل قتل الناس جميعاً لا يبررها مصانع تقام ولا إنجازات تنجز ولا صحارى تعمر .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » .

وجاء ضد كل عنصرية .

وكان صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي هم الإخوة الأول في الإسلام ، وقد تعلموا من القرآن أن الله خلقهم جميعاً من نفس واحدة .

« اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » .

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

لأنمايز إلا على أساس التقوى والخلق ، فالكل أبناء أب واحد .

والاجتهاد في فهم القرآن على ضوء المعارف الجديدة أمر واجب في الدعوة العصرية ، فالقرآن موسوعة وليس كما زعم البعض كتاب عقيدة وأخلاق وتشريع فقط . . والقرآن تعرض للفلك والكونيات والطب وعلم الأجنة ونشأة الخليقة والسياسة وعلم النفس بآيات ونصوص صريحة محددة تحتاج إلى اجتهاد رجل العلم ولا علاقة لها بأخلاقيات ولا بتشريع .

« يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث » .

ما هو ذلك الخلق المتتابع . . وما هي الظلمات الثلاث ؟

هذه أمور لا يستطيع أن يفتي فيها إلا عالم أجنة .

وبالمثل ماجاء عن السماوات السبع . . وعن السماء ذات الحبك (أي ذات الممرات) . . وعن دحو الأرض . . « والأرض بعد ذلك دحاها » والدحو في القاموس يعنى البسيط ويعنى التكوير معاً . . وعن الليل « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » .

وعن زوجية الأشياء .

« من كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » إشارة إلى سالب وموجب . . ومادة ومادة مضادة . . وإلى الاستقطاب في قطبين . . وإلى الجزئيء اليميني والجزئيء اليساري الذي عرفناه في الكيمياء . . إلى آخر ما تحكى لنا العلوم الحديثة عن زوجية الأشياء .

وعن مبدأ الخلق .

« جعلنا من الماء كل شيء حي » .

« خلق كل دابة من ماء » .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

وعن نشأة جنس الجنين من النطفة المنوية .

« وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » .

لم يقل من نطفة الأنثى بل من نطفة الرجل . وهذه حقيقة علمية .

وعن النجوم والكواكب في السماء .

« كل في فلك يسبحون » .

« كل يجري لأجل مسمى » .

لا يوجد جرم فلكي في حالة سكون وإنما الكل يتحرك . .

. . والكل يجري لأجل . . وله ميلاد وموت كما أن للإنسان ميلاداً

وموتاً . . وهذه كلها علوم ومعارف علمية على وجه التحديد

ولا علاقة لها بوصايا خلاقية أو تشريعات أزلية ومفتاحها في اجتهاد

الميكروسكوب والتلسكوب وكيمياء الجزيء والذرة وعلوم الحياة

وبحث العقل في أرجاء الكون .

وهذا الاجتهاد العصري مطلوب ولا خوف على القرآن من

اختلاف التفسير فهناك أكثر من ألف تفسير مختلف ولم يضر هذا

الاختلاف القرآن شيئاً وإنما كشف لنا عن خصوصيته .

هذه الفجوة المصطنعة المفتعلة بين الدين والعلم لا وجود لها

في الإسلام فالإسلام دين علم لا يزدهر بالعلم والجدل ، ويزداد

نضارة بهجوم العقل عليه ، لأنه حق ولا خوف على الحق من

جرأة المجترئين .

وهذا الانقسام المرضي في العقلية الشرقية بين معارف العلم

ومعارف الدين هو انقسام مفتعل روج له الاستعمار ليعزل البلاد

المتخلفة عن روح العصر ، ويعزل الدين ويحنطه في داخل الكتب

الصفراء ليسهل بعد ذلك طعنه والقضاء عليه كشيء قديم متحني

مهلهل عني عليه الزمن .

ونأتي بعد ذلك إلى أهم جانب في الدعوة العصرية وهو القدرة

على مخاطبة الشباب بأسلوبه وأدواته .

إن الشباب يذهب إلى السينما والمسرح ، ويجلس أمام الراديو

والتلفزيون ، ويستمتع إلى الأغنية . . فالدعوة العصرية يجب

أن تدخل إليه من كل تلك القنوات

على الدعاة أن يختاروا لدعوتهم القوالب العصرية الجديدة ،

فيضعوا أهدافهم في أشكال فيلمية ومسرحية ومسلسلات

تلفزيونية وبرامج ترفيهية .

وعلى الدعوة العصرية أن تتجنب الديباجات الكلاسيكية القديمة
والعبارات المكررة المحفوظة ، وأن تستخدم العبارة البسيطة
المختصرة والنظرة الموضوعية والأسلوب العلمى الذى يقنع العقل ..
وأن تعتمد إلى الاستدلالات الحسية البليغة من واقع الحياة .
« إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة » .

فلماذا يستحي رجل الدين من استخدام السينما والتلفزيون
والمرسح وقصة الحب ليقدم مفاهيمه . ولماذا يختار أمثله وشواهد
من عصر عثمان بن عفان ومعاوية وهو يعيش فى أكثر العصور
خصوصية وثراء . . ولماذا يقتصر على منبر الجامع فى عصر تعددت
فيه المنابر الإعلامية ، وأصبح فيه التلفزيون أخطر هذه المنابر
جميعاً . فلماذا ترك هذا المنبر لأعدائنا يروجون فيه للإلحاد والانحلال
ونسجن أنفسنا داخل قوقعة المسجد .

وعلى الدعاة العصريين أن يلموا إلاماً تاماً بجميع الفلسفات
الغربية والشرقية الإلحادية ، والمذاهب الاقتصادية والسياسية
الجديدة ، وبوجوه قوتها وضعفها ، وبأساليب الرد عليها
بالعلم والرأى الموضوعى ، وليس بالسياب والشتم أو الدعاوى
الإيمانية .

إن أسلوب خطبة الجمعة التقليدى لم يعد يجدى فى الدعوة فى

عصر تيسرت فيه السبل والأدوات ، وتعددت المغريات التى
تسابق رجل الدين إلى قلوب الشباب . . وأعداء الدين أصبحوا
حيثناً بأسنان ذرية وعقول ألكترونية . . وعلمنا أن نحاربهم بأسلحتهم
. وعلمنا قبل كل شئ أن نتعلم السباحة فى مياههم ولا نسجن الدين
فى درقة سلحفائية تنادى من على منبر مهجور وفى يدها سيف
خشبي .

بل إن خطبة الجمعة ذاتها عليها أن تزود بكل ما قلناه من
علوم العصر وحيله وأساليبه لتستطيع أن تناقشه وتقوده
ما يتكلم خطيب الجامع من ميكرفون . . عليه بالمثل أن يتكلم
مستخدماً كل ما يهبه العصر من معارف وعلوم ودهاء .

إسرائيل تحرف الأناجيل

مصادقاً على كلامنا الذي قلناه عن التوراة طالعنا الأخبار
أخيراً بأن اليهود الذين أدمنوا تحريف الكتب المقدسة أصدروا طبعة
جديدة من الإنجيل حرفوا فيها وبدلوا وغيروا على هواهم الكثير
من الآيات .

ويبلغ عدد التحريفات في أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا
٣٥١ تحريفاً . . أما في سفر أعمال الرسل فبلغت جملة التحريفات
١٦٥ تحريفاً وفي الرسائل الأخرى - (الرسالة إلى أهل رومية
٦٢ تحريفاً . . والرسالة إلى أهل كورنثوس ١٧ تحريفاً . . والرسالة
إلى أهل غلاطية ١٢ تحريفاً) .

وتهدف جميع هذه التحريفات إلى تبرئة اليهود من دم المسيح . .

في إنجيل متى على سبيل المثال في النسخة الأصلية نقرأ عن
عن المؤامرة على المسيح :

« حينئذ اجتمع رؤساء الكهنة وشموع الشعب إلى دار
رئيس الكهنة الذي يدعى قيافا وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر
ويقتلوه » ٢٦ : ٣ - ٤

وفي النسخة المزورة تشطب كلمة « ويقتلوه » وتحرف إلى
كلمة « وينفوه » فتصبح العبارة هكذا :

« وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر وينفوه » .

وفي مكان آخر نجد في النسخة الأصلية :

« وفيما هو المسيح يتكلم إذا يهوذا أحد الإثني عشر قد جاء
ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشموع
الشعب والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلا الذي أقبله هو هو أمسكوه
حينئذ تقدموا وألقوا الأيدي على يسوع وأمسكوه » ٢٦ : ٤٧ -
٤٨ - ٥٠ .

« وفي النسخة المزورة يشطبون « رؤساء الكهنة وشموع
الشعب » وهم اليهود بالطبع ويضعون بدلهم كلمة « رعاع كثير » .
فنقرأ النص هكذا :

« وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الإثني عشر قد جاء ومعه
رعاع كثير بسيوف وعصى ، والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلا
الذي أقبله هو هو أمسكوه » .

في الإصحاح ٢٧ : ١ متى النسخة الأصلية نقرأ :

« ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشموع الشعب
على يسوع حتى يقتلوه » .

وفي النسخة المزورة تبدل كلمة « يقتلوه » إلى كلمة « يدينوه » :

« تشاور جميع الكهنة والمتشرعون على يسوع لكي يدينوه » .

وفي حادث الصلب نقرأ تبديلاً خطيراً ، فاليهود في النص
الأصلي يصرون على صلب المسيح ويقولون . . دمه علينا وعلى
أولادنا :

« فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا » ٢٧ :
٢٣ - ٢٦ .

أما في الطبعة المزورة فنقرأ :

« فأجاب الرعاع وقالوا دمه عليه » .

أي على رأس المسيح نفسه . . وبذلك يبرعون أنفسهم
وأولادهم من دمه . . ويلقون بالدم على رأس الضحية .

وللأهمية نقدم النصين باللغة الإنجليزية :

Then answered all the people and said his blood be on us and on our children

وفي النص المحرف :

Then answered the rabble and said his Blood be upon him

وفي إنجيل مرقس تتكرر نفس المحاولات بنفس الهدف :

« هانحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت » ١٠ : ٣٢ - ٣٣

فيشطبون كلمة الموت ويبدلون هكذا :

« هانحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى الكهنة والكتبة فيدينونه » .

وفي مكان آخر :

« وكان الفصح وأيام الفطير بعد يومين وكان رؤساء الكهنة يطلبون كيف يحسبونه بمكر ويقتلونه » ١٤ : ١ .

تقرأها في النسخة الإسرائيلية :

« وكان الكهنة والكتبة يطلبون كيف يحسبونه بمكر وينفوه » فيبدلون كلمة القتل بالنفي .

وعن الصلب نقرأ في النسخة الأصلية :

فصرخوا أيضاً أصليه .

فقال لهم بيلاطس : وأى شر عمل .

فازدادوا جداً صراخاً أصليه ١٥ : ٩ - ١٤

وفي النسخة المزورة يشطبون كلمة الصلب ويستبدلون هكذا :

فصرخوا أيضاً أبعده عنا .

فقال لهم بيلاطس : وأى شر عمل .

فازدادوا جداً صراخاً أبعده عنا .

وفي إنجيل لوقا يحرفون كلمة « يقتلونه » إلى كلمة « يضايقونه »

في النسخة الأصلية :

« وقرب عيد الفطير الذي يقال له الفصح وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه » ١٤ : ١ .

وفي النسخة الإسرائيلية :

« وكان الكهنة والكتبة يطلبون كيف يضايقونه » .

وعن الصلب تقرأ في النسخة الأصلية :

« فنأداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع فصرخوا
قائلين أصلبه أصلبه » ٢٣ : ٢٠ - ٢١

وفي النسخة الإسرائيلية :

« فنأداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع فصرخوا
قائلين أبعدنا أبعدنا » .

وفي إنجيل يوحنا :

« فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه »
٥ : ١٦ - ١٨

ونقرأها محرفة هكذا :

فمن أجل هذا كان أهل اليهودية يطلبون أكثر أن يضايقوه .

وفي مكان آخر :

« أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل
الناموس ، لماذا تطلبون أن تقتلوني » ٧ : ١٩ نقرأها في النسخة
الإسرائيلية :

« أليس موسى قد أعطاكم الكتاب المقدس وليس أحد منكم
يعمل الكتاب المقدس ، لماذا تطلبون أن تضايقوني » .

وعن الصلب تراههم يلصقون تهمة صلب المسيح في الرومان
بينما هي صريحة على اليهود . في النسخة الأصلية :

« فحينئذ أسلمه إليهم (إلى اليهود) ليصلب . فأخذوا يسوع
ومضوا به » .

ونقرأها في النسخة الإسرائيلية :

« فحينئذ أسلمه إلى الرومان ليصلب فأخذوا يسوع ومضوا
به » .

ونقرأها هكذا في الإنجليزية :

'Then delivered he him therefore unto them to be
crucified

وفي النسخة الإسرائيلية :

'Then delivered he him therefore unto Romans
to be crucified.

وفي سفر أعمال الرسل :

نقرأ في النسخة المعتمدة :

« وقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال : أيها
الرجال اليهود . . أيها الرجال الإسرائيليون أسمعوا هذه الأقوال ..

يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم .

هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحترمة وعلمه السابق وبأيدي آثمة صلبتموه وقتلتموه « ٢ : ١٤ - ٢٢

وفي النسخة الإسرائيلية نقرأ الختام هكذا :

« هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وقد صلبته أيدي الرومان وقتلته »

Ye have taken and the Roman hand have crucified and slain him.

إلى هذه الدرجة من الجرأة والفجور يبدلون كلمات لا يصح أن تبدل ويحرفونها عن مواضعها . ومتى يحدث هذا . . اليوم . وفي هذا العصر . . وتحت سمع الكنيسة وبصرها وتحت سمع العالم وبصره .

والطبعة المزورة صدرت عام ١٩٧٠ بالقدس عن دار النشر اليهودية .

وقد ارتكبوا هذه الجريمة اعتماداً على وثيقة التبرئة التي أصدرها المجمع المسكوني والتي برأت اليهود من دم المسيح . . وأصدرها البابا بولس السادس في أكتوبر ١٩٦٥ وقال فيها :

« إن ما ارتكب ضد المسيح لا يمكن أن يعزى دون تمييز إلى جميع اليهود الذين كانوا عاثشين إذا ذاك ولا إلى يهود أيامنا » .

علماً بأن التوراة صريحة بأن ذنوب الآباء يكفر عنها الأبناء .

وفي سفر الخروج ٢٠ : ١٥ :

« أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء » .

وكانت نتيجة هذا التساهل والتسامح الذي وقعت فيه الكنيسة أن امتدت أيدي اليهود إلى الإنجيل لتعبث فيه بالتبديل والتحريف علناً وبلا حياء .

ومن قبل كتبنا عما فعلوا بالتوراة وما حرفوا في سيرة الأنبياء الأبرار وكيف ألصقوا بهم السرقة والدعارة والشذوذ حقداً وتهديماً وتخريباً .

وما يفعلونه « اليوم أمامنا من تحريف الإنجيل وتزويره وتبديله في علانية فاجرة هو شاهد على ما فعلوه بالأمس ، وهو مصداق على جرائمهم .

ومع ذلك نرى أمريكا المسيحية تؤيدهم وتساندهم بالمال والسلاح .

وتسكت الكنيسة الغربية عن جرائمهم .

وما يحدث أكبر من مجرد تحريف كتاب مقدس .

ولنما التاريخ يزور علانية .

ولقد وصفهم القرآن صادقاً حيناً قال إنهم « يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله » .

ولهم « يحرفون الكلم عن مواضعه » .

ولهم « افترؤا على الله الكذب » .

وأنذرهم بمصيرهم قائلاً :

« ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة .
أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » .

ونحن ننتظر من كنيسةنا الشرقية وعلى رأسها رجل بار مستنير هو الأنبا شنودة أن يقوم بالاحتجاج والتجريم لهذه الأعمال على مستوى العالم ، وأن تستنهض الكنيسة الغربية إلى عمل موحد لفضح هذا التدليس التاريخي الذي لا يرضى به ضمير .

العلوم الذرية والإسلام

من ألوف السنين . . . ومن قبل أن يمتلك الإنسان معامل للطبيعة والكيمياء ، ومن قبل أن تتاج له فرصة التحليل المعمل للمادة . . . كان مشغولاً باكتشاف سر المادة وتكوينها ، وكان يحاول أن يفض الغازها وأسرارها بعقله المجرد بالنظر والتأمل ، بينما كان أهل الشطح من الصوفية يحاولون الوصول بالإلهام .

وإنه لأمر عجيب ومدهش أن نعثر في مخطوطة للصوفي المسلم جلال الدين الرومي منذ حوالي الألف سنة عبارة يقول فيها :

لو فلتت الذرة لوجدت في داخلها نظاماً شمسياً .

ونجد نفس العبارة لفريد الدين العطار من تسعمائة سنة :

الذرة فيها الشمس . . وإن شققت ذرة وجدت فيها عالماً
وكل ذرات العالم في عمل لا تعطيل فيه .

وكذلك نجد رهبان البوذية يرددون في تعاليمهم منذ أربعة
آلاف سنة أن المادة تنقسم لأصغر جزء فيها . . وذلك الجزء الأصغر
هو وحدة قائمة بذاتها ، وتحتوي تلك الوحدة على نظام من
« الداهرمات » يتراوح عددها من ٨ إلى ١٢ داهرمات . . وهذه
الداهرمات تولد لتفنى سريعاً ويبقى تأثير الواحد لفترة قصيرة ثم
يعقبه غيره .

وهذه الأقوال العجيبة تطابق أحدث ما كشفه العلماء الآن عن
المادة والذرة باستخدام أحدث المختبرات وأعقد وسائل البحث
والاستقراء .

كيف وصل هؤلاء الناس بإلهامهم إلى قلب الحقيقة هكذا
دفعه واحدة . . وبدون مقدمات . . وبدون وسائل . . وبدون
مختبرات .

بل إننا لنرى القرآن يشير إلى الذرة من ألف وأربعمائة سنة
على أن لها مثقال . . ويقرر أن هناك ما هو أصغر من الذرة ،
مؤكداً بذلك أنها كتلة قابلة للتقسمة .

« وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .
(يونس - ٦١)

وفي سورة سبأ تتكرر الإشارة بنفس الكلمات :

« ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا
أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » . (سبأ - ٣)

وقديماً قال فلاسفة المعتزلة المسلمون بأن المادة تتجزأ حتى
تصير إلى جزء لا يقبل التجزئة أو القسمة هو ما أسموه « بالجوهر
الفرد » أو الذرة في قاموسنا ، ووافقوا في ذلك ما ذهب إليه فلاسفة
الإغريق .

وأنكر فلاسفة مسلمون هذا المذهب ، فقال إبراهيم النظام :

لا جزء إلا وله جزء ولا بعض إلا وله بعض ولا نصف
إلا وله نصف ، وإن الجزء يجوز تجزئته أبداً .

كما أنكر الفارابي وابن الهيثم وابن سينا والكندي هذا المذهب
وقالوا بأن الجوهر الفرد أو الذرة تقبل التجزئة لما هو أصغر منها .

والذرة في العلم الحديث بناء ونظام أشبه بالنظام الشمسي
في أنها تتألف من نواة كبيرة نسبياً يدور حولها إلكترونات بالغة

الصغير في أفلاك متعددة وبين الاثنين فضاء وخلاء هائل . .
ويستحيل تقدير مكان الألكترون في لحظة معينة إلا على وجه
الاحتمال . . وهو من فرط سرعته أشبه بسحابة تغلف النواة .

والألكترون سالب الشحنة . . وهو يستطيع أن يقفز من
مداره إلى مدار داخلي أقرب إلى النواة أو إلى مدار خارجي مبتعداً
عنها ، وهو بهذه الحركات يأخذ أو يعطى شحنة كهرومغناطيسية
مقدارها فوتون واحد . . وتتوقف شحنة الفوتون على المدار . .
والفوتون هو الوحدة العلمية لطاقة الضوء .

ويستطيع الألكترون أن يقفز سبع قفزات عبر سبع أفلاك
عبر سبع مستويات من الطاقة أو سبع سموات خارجاً من الذرة ،
وهو في أثناء ذلك يعطى السبع فوتونات التي تؤلف الضوء الشمسي .

والنواة موجبة الشحنة . . والذرة بجمعها بين النواة الموجبة
والألكترونات السالبة الشحنة . . تعتبر متعادلة . . ولكن إذا انطلق
الألكترون هارباً من ذرته فإن شحنة الذرة الموجبة تترجح
وتتحول بذلك إلى أيون موجب .

والحرارة الشديدة في باطن الشمس تستطيع أن تقشر
الألكترونات عن ذراتها فتحولها إلى أيونات موجبة ، وتستطيع

أكثر من ذلك أن تفك النواة إلى محتوياتها ، وبذلك تنفرط الذرات
إلى بلازما أولية .

والأيدروجين يتحول في باطن الشمس بهذه الطريقة إلى
بلازما أولية ثم يعاد توليف وتركيب هذه البلازما بالحرارة أيضاً
إلى ذرات جديدة ثقيلة من الهليوم مع إطلاق طاقة تناظر ملايين
وبلايين القنابل الأيدروجينية .

وهذه الطاقة هي التي تأتينا من الشمس على شكل ضوء
وحرارة وإشعاعات متنوعة منها الضار والقاتل (مثل الأشعة فوق
البنفسجية والأشعة الكونية وأشعة إكس) .

والأشعة فوق البنفسجية والأشعة الكونية القادمة إلينا من
الشمس حينها تصل إلى الطبقات العليا من الجو ، تضرب ذرات
الأكسجين وتقشر ألكتروناتها وتحولها إلى طبقة الأيونوسفير
المكهربة .

وهذه الطبقة المكهربة تمتص بذلك هذه الأشعة القاتلة وتحميننا
منها مثل سقف أو قبة أو مظلة مضروبة فوقنا لحمايتنا . . وفي ذلك
يقول القرآن في كلماته الملهمة :

« وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً » .

والأرض تقذف باستمرار وفي كل لحظة بسيالات وزوابع
وسحب من الألكترونات والإشعاعات وفتايت الذرات قادمة من
الشمس ، وتتوزع هذه المخلفات الذرية حول الأرض حسب
خطوط المجال المغنطيسي . . وتنجمع في أنوار ملونة فسفورية
عند القطبين .

وهذه القذائف هي التي تتحكم في الطقس والمناخ ، وهي
التي تسبب الأعاصير والرياح ، كما أنها إذا زادت (أثناء فترات
الكلف الشمسي) ، تسبب ازدياد حالات الجنون والانتحار وتعجل
بالثورات والحروب بتأثيرها في الناس .

وحديثاً كشف العلم أن نواة الذرة تتألف من محتويات هي
الأخرى وأنها قابلة للقسمة . . وحدد العلماء ما بين ٨ إلى ١٢ جسيماً
(كما قال أصحابنا البوذيون ولا ندرى كيف عرفوا) داخلة في
تكوين النواة . . منها البروتون الموجب الشحنة والنيوترون المتعادل
والهيبرون والميزون والنيوترينو والانتى نيوترينو والبوزيترون . .
وغيرها وغيرها .

وهذه الجسيمات عمرها قصير جداً ، وهي تولد وتنفى وتتحول
الواحد إلى الآخر باستمرار كما قال رهبان البوذية . كما أن لها
طبيعة مزدوجة ، فهي تتصرف كجسيمات ، كما أنها تتصرف
كموجات ، ويبدو أنها هي الحالة الوسطى بين المادة والطاقة .

والكوارث التي تزلت بقوم عاد وثمود والتي فصلها القرآن
يمكن أن تكون كوارث من نوع الانفجارات الذرية . . فهي
تبدأ معظمها بصيحة :

« إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » .

(القمر — ٣١)

« قدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسوها » (الشمس — ١٤)

هذه الددمة . . أو الصيحة الحادة . . التي تشبه ما نطلق عليه
بالموجة فوق الصوتية ، وهي إذا كانت عالية جداً جداً فإنها يمكن
أن تحطم المادة وتفلق الذرة فتحدث انفجاراً ذرياً فورياً .

وتفاصيل هذه الكوارث كما وصفها القرآن تشبه ما حدث
في هيروشما وناجازاكي . . فهناك زلزال يجعل على الأرض
الأرض سافلها ، وهناك حرارة شديدة وإعصار مدمر ، وهناك
ضوء يعمى الأبصار ، والموت يأخذ الناس أخذ الصاعقة .

« فأخذتهم صاعقة العذاب الخون بما كانوا يكسبون » .

(فصلت — ١٧)

« فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » . (الذاريات — ٤٤)

والأرض التي تقلب وترفع وتلك تعود فتتزل رجوماً وحاصباً
على رؤوس الناس كالمطر .

« فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من
مجيل منضود » . (هود - ٧٧ - ٨١)

« وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين »
(الشعراء - ١٧٣)

ولم تكن هناك طريقة لنجاة لوط من مصير قومه إلا أن
يرحل مبتعداً مسيرة نصف يوم ، مما يدل على أن الكارثة هي
كارثة طبيعية لانجاة منها بكرامة أو معجزة . وإنما لا بد لمن يريد
النجاة أن يهرول مبتعداً .

وجعل الله لوط مبقناً هو الخروج بالليل ، وجعل
للكارثة وقتاً معلوماً هو الصبح ، حتى يكون لوط قد قطع مسافة
أمان كافية للخروج من قطر الزلزال .

وعلى الهاربين ألا ينظروا خلفهم . . لأن وهج الانفجار
سوف يعنى بصر من ينظر إليه كما تقول بذلك سورة هود .

ونقرأ نفس الكلام في سورة الحجر :

« أسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت
منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون » (الحجر - ٦٥)

وأكثر من ذلك دلت التفاعلات والمخلفات البلورية التي
وجدت في تربة هيروشيا على أن هذه التربة قد تحولت بعد ضربها
بالقنبلة الذرية إلى بقايا أشبه بما كان في سدوم وعمورة ، في
فلسطين حيث عاش قوم لوط .

حول ذلك الموضوع الطريف وحول هذه الحقائق وغيرها
يأخذنا مفكر إسلامي جديد هو المهندس أحمد عبد الوهاب في جولة
ممتعة في كتابه الجديد الذي صدر هذه الأيام بعنوان « أساسيات
العلوم الذرية الحديثة في التراث الإسلامي » .

وهو كتاب يستحق القراءة .

الإسلام والطب

الحيوانات تستطيع أن تباشر عملية التوليد بالغريزة ، وهي نعرف كيف تقطع الحبل السرى ، وأين ومتى تقطعه عن الجنين .

والدجاجة تستطيع أن تميز البيضة الفاسدة بين البيضات التي ترقد عليها فتبليدها وتلقى بها بعيداً ، وتستطيع أن تميز البيضة الغير ملقحة من البيضة الملقحة . . . وهي تقوم بإطعام غزيرى بتقليب البيض الذى ترقد عليه كل عدد معلوم من الساعات . . . ولولا هذا التقليب لماتت الأجنة بسبب التصاقها بالقشرة .

والفرخ الوليد يعرف أين أضعف مكان فى البيضة لينقره بمنقاره ويخرج .

والنحل يعرف كيف يبنى بيوته السداسية بدون مسطرة

وبدون برجل . . والتحلات الشغالة العائدة من الحقل تقوم بعمل
خريطة طبوغرافية دقيقة بمكان الزهور ، وذلك عن طريق الرقص
وعمل إشارات بحركات بطنها تدل باقى الشغالة على جغرافية المكان
بدقة لا تحيب .

وأعجب من ذلك كله هو ذلك الطيب الغريزي الذى يمارسه
حيوان « الوارا » حينما يلدغه ثعبان ، فإنه يلجأ إلى نوع من العشب
الصحراوي يسميه البدو « الرمرام » ويحك فيه جرحه . وقد لوحظ
أن هذا الحيوان لا يدخل فى معركة مع الثعبان إلا إذا كان على
مقربة من هذا العشب ، فإذا لم يجد هذا العشب فإنه لا يدخل فى
مواجهة مع الثعبان ويبادر بالهرب . . وقد أثبت التجارب أن هذا
العشب يشفى بالفعل من لدغة الثعبان ، والاسم العلمى لهذا العشب
هو *Htliotropium ramosismum* ومفعوله العلاجى راجع
إلى تأثيره على الجهاز المناعى فى الكبد .

وهذه حقائق علمية لم تعرف إلا أخيراً . . فكيف أدرك
حيوان « الوارا » هذه الحقائق ، ومن أين علم بها . .

ذلك هو الإلهام المباشر والطيب الإلهى بلاشك .

وهو مما وحي به الله للحيوان . . مصداقاً للآية :

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن

الشجر ومما يعرشون » وهذا مما حدا بالمسلمين الأوائل إلى الاهتمام
بالأعشاب .

وخرج من العرب عشابون عظام أمثال داود الأنطاكي وابن
البيطار وكوهين العطار وعمار الموصلى .

وقد جاء الوقت الذى نعمل فيه على إحياء تراثنا الطبى العربى
لقد قدمت الصين من تراثها الطبى الشعبى أسطورة الإبر الذهبية
ونحن نستطيع إذا عكفنا على تراثنا الطبى الإسلامى أن نقدم الكثير .

لقد ظلت أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر لا تعرف
إلا الأقرباذين العربى ، ولا تعتمد فى طبها إلا على مخطوطات
ابن سينا والرازى والزهرراوى وابن النفيس .

وما زالت أوروبا تسمى بعض المركبات الكيماوية بأسمائها
العربية . . فالطرطير هو الـ TARTAR والبورق هو BORIC
والكحول هو ALCOHOL والشراب هو SIRUP

وكانت الحضارة الإسلامية هى الجامعة التى أخذت عنها
أوروبا علومها الطبية فى عصورها الوسطى المظلمة .

وقد حاول بعض المستشرقين أن يطمس هذا التاريخ ، فقال

إن العرب كانوا مجرد ناقلين ومترجمين عن جالينوس وأبو قراط ،
وأن الطب العربي طب منقول عن اليونان والهند والفرس ومصر ،
وليس فيه جهد إبداعي - وهو افتراء تكذبه مخطوطات الرازي
وما جاء فيها من تصويبات كثيرة لأبو قراط وجالينوس .

فرى الرازي يخطئ أبو قراط في قوله بأن ماء الاستسقاء
ascitis يصل إلى الرئة ويسبب السعال ، ويصف هذا الرأي
بأنه سمج . . كما يخطئه في أن هزال الجسم يزيد من رواسب
البول ويقول . . هذا رأى خطأ لا يجوز .

كما نرى ابن النفيس يخطئ جالينوس في زعمه بأن هناك
ثقباً بين البطين الأيمن والبطين الأيسر في القلب وأنهما متصلان
ويقول إنه لا اتصال بين البطين الأيمن والأيسر وإن دم البطين
الأيمن والأيسر لا يمتزجان إلا في الحالات المرضية .

كما نرى البغدادي يصحح ما زعمه جالينوس من أن الفك
الأسفل عظمتان ويقول بل هما عظمة واحدة .

ومعلوم أن ابن النفيس كان أول من اكتشف الدورة الدموية
الرئوية الصغرى .

وقد اكتشفها الراهب الإسباني سرفيتوس بعده بثلاثمائة سنة

ونشر وصفاً لها في مجلته الدينية . . فلما بلغت هذه المجلة جون
كالفين في سويسرا استدعاه إلى جنيف وحاكمه واتهمه بالزندقة
وحكم عليه بالحرق .

هذا كان تاريخهم مع علماءهم ، وهذا كان تاريخنا .

بل إن أوروبا لم تنهض من كبوتها إلا حينما أخذت بالنظرة
الإسلامية إلى العلم .

إن تصحيح هذه الأوهام أمر ضروري .

.. فأسوأ ما تصاب به أمة أن تكون بلا ذاكرة .

وما أكثر ما استحدث هؤلاء الرواد القدماء في صناعة الطب .

كان الزهراوي أول من عالج حصوة المثانة بالتفتيت . .

وكانت له محاولات متطورة في علاج البواسير والناصور
والأورام السرطانية والفتق .

وكان الرازي أول من تكلم عن التشخيص المقارن differential
diagnosis حينما تختلط الأمراض وتنشابه علاماتها . . وقد
وصف الجهاز الهضمي بدقة كما وصف تشريح المعدة وطبقات
العضلات المختلفة فيها تماماً ، كما نصفها اليوم . . وفرق بين

النزيف المتسبب من القرحة والنزيف المتسبب من بواسير المريء
ووصف أقراص الطباشير للحموضة ، وهو علاج نستعمله الآن . .
وقدم وصفاً دقيقاً لمرضى الكزاز tetanus وقال عن وجه
المريض بهذا الداء إنه يبدو كما لو كان يضحك ، وهو مانسميه
الآن risus sardonicus وقال إن مريض الكزاز يموت
مختنقاً بسبب تشنج عضلات التنفس وتوقف حركاتها ، وهو
كلام علمي دقيق .

وللرازي رأى جيد في علاج الحروق بالماء البارد ، وتلك آخر
صيحة الآن في علاج الحروق حيث يوضع الذراع أو الساق
المحروقة في الماء البارد لمدة دقيقتين لتقليل الألم ولتقليل فقدان
البلازما .

ويقول ابن سينا في خلع الفقرات . . إن كانت الفقرة الأولى
في العنق مات صاحبها في الحال لأن عصب التنفس ينضغط فلا
يفعل فعله ، وإن كانت من الفقرات السفلية لم يمتنع التنفس ولكن
يتمتع التبرز والتبول . . وهذا كلام علمي دقيق .

وقد سبق الزهراوى الجراحين بألف عام إلى اكتشاف جراحة
دوالي الساق بطريقة سل العروق stripping of veins وهو
أسلوب لم يعرف إلا منذ ثلاثين عاماً .

وقد عرف العرب التخدير باستعمال البرودة الشديدة والأعشاب
المرقدة ، كالحشيش والسكران والداتورا والبلادونا .

وعرفوا طب الأسنان وخلعها وحشوها ، وذكر الرازى
سبعة أنواع من المعاجين والمساحيق لعلاج الأسنان وهى لا تخرج
في تركيبها عن المعاجين الحالية من حيث احتوائها على المواد العنصرية
والمواد المطهرة والمواد الحافظة والمواد القابضة والمواد المزيلة
للروائح . . كما عرفوا فتح الضرس بالثقب وإماته عصب الضرس
باستخدام الزرنيج .

واشتغلت المرأة العربية بالتخريض والطب من قديم . . وفى
أيام النبی عليه الصلاة والسلام كانت رفيدة الأسلمية تتخذ خيمة
في المسجد تداوى فيها الجرحى في الحرب . . وفى أواخر الدولة
الأموية كانت زينب طيبة بنى أود من الماهرات في صناعة الكحالة
ومداواة آلام العين .

وكان العرب أول من استحضروا أحماض الكبريتيك والنيتريك
والماء الملكي وأيدروكسيد الصوديوم والنشادر ونواتر الفضة
وكلوريد الزئبق ويوديد الزئبق والأنثيمون وكثيراً غيرها .

وكان الرازى أول من جرب أملاح الزئبق على القروء
ليرى مفعولها ، وأول من استخدم الزئبق في المراهم .

وعرف العرب في تحضير الأدوية وسائل التقطير والتبخير
والترشيح والتصفيد والتدوير والطبخ والتبلور . . وكان ابن سينا

أول من غلف الحبوب بالذهب والفضة ، وكان الزهراوى أول من حضر الأقراص بالكبس في قوالب خاصة .

وسبق العرب العالم في ابتكار نظام المستشفيات . . وكانوا في بمارستان قلاوون يرفهون عن المرضى بالموسيقى وتلاوة القرآن . . وكانوا يعطون كل مريض منحة مالية عند خروجه حتى لا يعجل إلى العودة إلى عمله في فترة النقاهة .

ومن أقوال الرازى . . ينبغي للطبيب أن يوهم المريض بالصحة ويرجيه بها وإن كان غير واثق بذلك ، فزاج الجسم تابع لأخلاق النفس ، وتلك نظرة نفسية عميقة من طبيب قديم .

وكان يقول . . لا تعالج بالدواء إذا استطعت أن تعالج بالغذاء وحده ولا تعطى دواء مركباً إذا استطعت أن تعالج بدواء بسيط .

وفي تحرزهم في مسألة الأدوية هذه نرى طبيباً كبيراً من أطبائهم هو أبو العلاء ابن زهر الأندلسي يقول :

أقسم بالله أنى ماسقيت دواء قط مسهلاً إلا واشتغل بالى قبله بأيام وبعده بأيام فإتما هى سموم ، فكيف حال مدبر السم ومستقيه .

وهذا طبيب كبير يتردد في كتابة دواء ملين ويقلق ويشتغل به مخافة الإضرار بمريضه .

فأين هذا الطبيب من أطباء اليوم الذين يكتبون المضادات الحيوية والكورتيزون دون تحرز وهي سموم قتالة .

إنما هى أخلاقيات المسلم الذى يخاف ربه . .

ومن النظرة الإيمانية أن تبدأ علاج المريض بأقرب الأشياء إلى طبيعته بمجرد تعديل قائمة غذائه . . فإذا لم يفلح العلاج لجأت إلى أعشاب من بيئته تقدمها له دون أن تغير طبيعتها ودون إضافة أو استخلاص أو تجزئة إيماناً بأن الله وضع العناصر الشافية في داخل هذه العبوة الثابتة للحكمة .

وهذه النظرة صحيحة . . ولها شواهد علمية تؤيدها . . ففي التداوى بالنبات المسمى «بذر جوتونا» واسمه العلمى PLANTAGO OYATA لوحظ أن استخلاص العنصر الدوائى وهو القشر من البذور وتناوله منفرداً لعلاج القولون يؤدي إلى مضاعفات حساسية . . ولاتظهر هذه المضاعفات في حالة تناول البذور على حالتها الخام .

وهذا لا يعنى ألا نقوم بالتجارب وندرس ونستخلص . بل المراد ألا نتدخل إلا للضرورة وأن ننظر باحترام إلى الطبيعة ومنتجاتها باعتبارها صناعة يد إلهية حكيمة لا تخطئ .

وعسل النحل ونحو هذه الشفائية شاهد على هذا الأمر .

وفي القرآن إشارات إلى مسائل مازالت إلى الآن من قبيل الأسرار ، فحينما يشكو أيوب لربه من مس الشيطان :

« رب إني مسني الشيطان بنصب وعذاب » .

يقول له ربه :

« اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » .

الله يصف له ماء الينابيع ليشرب ويغتسل ليذهب عن جسمه من هذا المس الضار .

وفي آية أخرى عن الماء يقول القرآن :

« وينزل من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجس الشيطان

فيصف الماء بخاصتين . . خاصية التنظيف والتطهير ، وخاصية

أخرى هي إذهاب مس الشيطان .

وفي حديث شريف يقول النبي عليه الصلاة والسلام في علاج

المحسود :

« يتوضأ الحاسد ويغتسل المحسود من وضوئه » .

إنه الماء مرة أخرى يوصف ليذهب المسوس الروحية الضارة
التي أحدثتها العين .

فما هي تلك الخاصية الغيبية للماء ؟

ذلك باب شريف للبحث ، قد يتضح لنا بيانه في المستقبل .

وقد ظن البعض خطأ أن التداوى ليس من الإسلام وأنه ناقض
للتوكل ، وقال البعض لرسول الله . . أنتداوى يا رسول الله . .
أيرد الدواء قدر الله . . فقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام . .
« إنما نرد قدر الله بقدر الله ، فما خرج شيء عن قدر الله » .

وفي الإسلام لمحات من الطب الوقائي لو اتبعها البلاد الإسلامية
لاخفت البلهارسيا والإنكلستوما من القارة الأفريقية ، ولوفرت
الملايين التي تنفق على العلاج بلا جدوى .

فقد نهى النبي عن التبرز في الماء وفي الظل وفي طريق الناس
وفي الحديث الثابت .

« ولا يبولن أحدكم في الماء ثم يتوضأ منه » .

« اتقوا الملاعن الثلاث : التبرز في الماء ، وفي الظل ، وفي
طريق الناس » .

وتلك حلقة البلهارسيا المفرغة التي لا تنتهى . . تنزل البويضات
فى الماء . . فتفقس اليرقات وتسبح إلى القواقع . . ومن القواقع
يخرج السركاريا ليصيب الإنسان من جديد ، فإذا كسرنا حلقة
التبول والتبرز فى الماء . . انتهت البلهارسيا إلى غير رجعة .

والنظافة أول الشعائر الدينية عند المسلم . . فلا صلاة بغير
وضوء ولا إسلام بغير غسل ولا ملابس إلا الطاهر .

يقول القرآن :

« وثيابك فطهر » .

والقرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى نص على الطهارة
والنظافة والاعتسال .

وقد وضع الإسلام الأسس الثابتة للصحة النفسية ، وذلك
بالصبر والتوكل والتسليم والتفويض والحمد والشكر بعد الاجتهاد
وبذل الوسع .

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

« عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة
الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .

« لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم
الكافرون » .

وذلك هو الطب النفسى الإلهى الذى عجز فرسان الطب النفسى
المادى أن يلحقوا به والذى مازال هو الباب الوحيد للسكينة والأمن
حينما تسد جميع الأبواب .

في مسألة الخير والسيّر

التساؤل عن حرية الإنسان تساؤل لا ينتهي .

وما زلت أجد من يستوقفني في الطريق ويسألني .. هل الإنسان
مخير أم مسير !!!

والذين يقرءون أكثر تساؤلا من الذين لا يقرءون .

والقضية أزلية ولا ينتهي الكلام فيها ولا ينتهي الفضول إلى
كشف أسرارها لأنها مرتبطة بحقيقة الإنسان ولغز القدر .

وعقدة الحكم في نظري هو ما يشعر به الإنسان في أعماقه .

فتلك الشهادة التي تأتي من الأعماق هي برهان لا يعدله برهان
وحجة لا تقف أمامها حجة .

والإنسان يشعر بالفعل في أعماقه أنه يختار في كل لحظة بين عدة بدائل .. وأنه ينتقى ويرجح ويفاضل ويوازن ويتخير .. وهو يحاسب نفسه ويحاسب الآخرين .. ويفرح إذا أصاب ويندم إذا أخطأ .. وكلها شواهد على أننا نتصرف انطلاقاً من بدهة مؤكدة بأننا أحرار مسئولون .

ونحن نرى يد السجان تمتد إلى سجينه فيضطهده في لقمته ويضربه ويعذبه ويعلقه من قدميه ويقهره على الحثاف باسمه قسراً ويرغمه على التوقيع على ما لم يرتكب . ولكن هل نراه يستطيع مهما استخدم من وسائل الإرهاب أن يجعل هذا السجين يحبه من قلبه قهراً .

لا ..

هنا تقف كل وسائل الإكراه عاجزة .

وسوف يظل هذا السجين حتى الموت حراً فيما يحب ويكره .. حراً فيما ينوى ويضممر .. لا يستطيع أحد أن يقتحم عليه غرفة ضميره ..

حتى الشيطان لا يستطيع أن يدخل قلبك إلا إذا فتحت له الباب وصادف إغراؤه هوى قلبك ولكنه لن يستطيع أن يحملك على ما تكره مهما بلغت وسائله .

وذلك شاهد آخر على أن الله أعتق القلب وأعتق الضمير من كل وسائل الضغط والإكراه .

الاختيار إذن حقيقة .. وحرية القلب حقيقة .. وحرية النية حقيقة .

والسؤال هو عن مدى هذا الاختيار وحدوده ؟

وكيف نزداد حرية ؟

ومن هو أكثرنا حرية ؟

ثم كيف تكون هناك حرية مع مشيئة الرب وكيف تتفق هذه الثنائية مع عقيدتنا في التوحيد ؟

تلك هي علامات الاستفهام .

ورغم قهر الظروف وكثرة الضوابط والموانع التي تحد حرية الإنسان هنا وهناك إلا أن الإنسان تبقى له مساحة يتحرك فيها ويختار .. وتتسع هذه المساحة كلما اتسع علمه .

وقد أجاب الغزالي على هذا التساؤل الأزلي بكلمات فقال :
إن الإنسان مخير فيما يعلم مسير فيما لا يعلم .. أي أنه يزداد حرية كلما ازداد علماً .

وقد رأينا مصداق هذا الكلام في حياتنا العصرية وشاهدنا الإنسان الذي تزود بعلوم البخار والكهرباء والذرة يتجول في الفضاء بالطائرات والأقمار ويهزم الحر والبرد ويسخر قوانين البيئة ورأينا مساحة حرته تزداد ومجال تأثيره يتضاعف .

وقرأنا في القرآن عن الذي عنده علم من الكتاب وكيف نقل عرش بلقيس في طرفة عين .

وقرأنا كيف أحيا عيسى الموتى بسلطان من ربه .

وقرأنا كيف عرج محمد عليه الصلاة والسلام بمدد من الله إلى السموات وكيف جاوز سلمة المنتهى وبلغ مقام قاب قوسين أو أدنى من ربه .

وذلك هو مجال الحرية الذي يزداد كلما ازداد علم صاحبه والذي يبلغ أعلى المقامات بالعلم الرباني اللدني وبالممدد الإلهي الإحساني .

فالحرية حقيقة .

والاختيار حقيقة .

والناس متفاوتون في هذه الحرية بتفاوت علمهم وتفاوت مقاماتهم قرباً وبعداً من الله لأن هذه الحرية لا تأتي إلا بالله ومن الله .

فالعلم منه والسلطان منه والنفخة التي نقلتنا من جمادية الطين إلى إنسانية الإنسان هي نفخته الربانية والتطلع إلى الحرية فطرة ضمن النمط التي فطرها الله فينا .

وكل إنسان ممتور على اختيار الأحسن من وجهة نظره .

فأما الواحد من عوام الناس فيختار نفسه ومصلحته وشهوته لأنه يرى بنظره القريب أن نفسه هي الأحسن بين جميع الاختيارات .

وأما العارف بالله فهو لا يختار إلا الله لأنه يرى بنظره البعيد أن الله هو الأحسن بين جميع الاختيارات وهو باختياره لربه يخرج عن نفسه وعن اختياراتها ويسلم إرادته لاختيارات الله له وذلك هو منهج الطاعة .

وهو بخروجه من نفسه يخرج من المخالفة إلى الموافقة ومن الثنائية إلى التوحيد ومن المعاندة إلى الانسياب مع الله في كافة أحواله وتقلباته .

فإذا وقع في المعصية فإنه لا يصح له أن يقول : إن الله قدرها عليه لأن الله لا يختار لنا إلا شريعته ولا يحب لنا إلا طاعته وهو العارف صاحب الدعوى الذي ادعى أنه خرج من إرادته إلى إرادة ربه . فهو إن عصي فإن معصيته تشهد على كذب دعواه وأنه مازال عند نفسه لم يبرح .

بل إن العارف الحق بخروجه من نفسه يخرج من منطقة الاختيار كلها ويدخل منطقة الإسلام .. الإسلام لله وللشيئة الإلهية .. فهو يجتهد في عمله لأن الله أحب له الاجتهاد ولكنه لا يحزن لخسارة ولا يفرح لنجاح ولا ييأس على فشل لأنه فوض النتائج إلى الله وارتضى أحكامه بلا جدل .

وبخروجه من منطقة الاختيار يخرج أيضاً من منطقة المساءلة وترفع عنه المحاسبة فيكون ممن يوفى لهم أجرهم بغير حساب .

وتلك هي سنة الفرقة الناجية .. خروج من اختيار النفس إلى اختيار الرب .. وتبرؤ من الحول والطول .. وإسقاط للتدبير .

يقول الصوفي النفري إلهاماً عن ربه :

يا عبدي الق الاختيار الق المساءلة البتة .

فأهل التفويض والتوكل هم أهل الجنة بالتركية لأنهم أسقطوا اختيارهم وعاشوا وفق الإرادة الإلهية .

أما أهل الاختيار فهم واقفون عند نفوسهم يتخيرون بين حظوظهم وقد وكلوا أمرهم إلى عقولهم التي تخطئ وتصيب .. فوضعوا أنفسهم مع أهل المساءلة .

فمن يختار يسأل .

ومن أسقط الاختيار وأسقط التدبير لا يعود هناك مجال لمساءلته فثله لا تقع في حقه معصية لأنه أسقط مشيئته ضمن ما أسقط من اختيارات .

وشاهد إسقاط التدبير في حق العارف هو كماله فلا يكون مع الله إلا الكمل .. ولا يصح الادعاء بأنك مع الله وشواهد أعمالك تدل على أنك مع هواك وشهواتك فتلك تكون حجة الله عليك بأنك كذاب .

ولهذا لا يترك الله المؤمنين العارفين الذين يدعون أنهم من أهله وخاصته دون أن يبتليهم ويفتشهم .. فتلك دعوى عريضة لا يصح أن تنفوت دون امتحان .

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون .. ولقد فتنا الذين من قبلهم .. فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » . (٢ - العنكبوت)

والعجيب أن الملحدين وأهل الفكر المادي يقولون بالجبر والحتمية ثم ترى جميع تصرفاتهم أبعد ما تكون عن هذا الاعتقاد وكان المفروض لو كانوا صادقين في دعواهم بعدم جدوى الحرية

الفردية أن يسلموا هذه الحرية لربهم المزعوم (المادية الجدلية) ولكن ما يحدث دائماً هو العكس فترى تاريخهم تاريخاً دموياً لجبايرة الحكم الفردى .. ستالين .. لينين .. منجستو .. وما منهم إلا ويقول : .. أنا .. وما منهم إلا مدع يتصور أنه يصنع التاريخ .. وينسى الواحد منهم أنه قال منذ لحظات أن المادية التاريخية هي التي صنعت له وعيه وعقله وموقفه .

فإذا كانت المادية التاريخية هي التي أفرزت الفن والفكر والدين والوعى فكيف بك يا صاحبي تعود فتدعى لنفسك أنك تصنع التاريخ وأنت أحد مصنوعات هذا التاريخ .. إلا أن تكون قد عدت فناقضت نفسك وتصورت لإرادتك علواً على التاريخ المادى بما يشفع لها أن تعود فتصنع التاريخ من جديد .

وإذا كان للإرادة الإنسانية علو على التاريخ .. فذلك هو سبق الفكر على المادة الذى تنكرونه فى أ ب فلسفاتكم .

فهذا أنتم قد تصورتكم أنكم وضعتم الهرم على قاعدته ثم عدتم فقلبتموه على سنامه .

وهؤلاء هم أهل الضلال البعيد .

أما الوجوديون والعشيون من أهل الحياة مع الهوى واللحظة فهؤلاء يقولون أنهم اختاروا نفوسهم فالحياة الحقة عندهم هي

أن تكون نفسك .. لا تعباً بعرف أو تقليد أو دين أو أخلاق وإنما تعيش لحظتك كما تحب وتهوى فأنت لا تملك غير لحظتك واللحظة التي تمضى لا تعود .

واحق أن كلا منهم قد اختار حيوانه وأطاع غريزته وأسلم لنزوته واستلهم فكرته .. فهو الآخر عبد وإن تصور أنه حر .. عبد لآله كثيرة تنجاذبه وتتقاسمه .. ثم أنه هو وآلهته عبيد لله دون أن يدري .. فالكل منه وإليه .

« قل كل من عند الله » .

والكون بنواميسه وما فيه من جمال وفن وفكر وحب وقوانين مادية جدلية ونظريات عبثية ووجودية وأفكار فوضوية .. هو كون مخلوق لله .. وهو مظهر من مظاهر التجلى الإلهى والمشئنة الإخية .. فلا شيء فى الكون يخرج عن مشئنة الله وإن خرجت بعض الأشياء عن رضاه .

والكل مسلم لله طوعاً أو كرهاً .

ولمنا كل الفارق هو فارق بين عارف وجاهل .

فالعارف أدرك الحقيقة فأسلم باختياره ونخرج عن نفسه طوعاً وحباً وكرامة وانضوى تحت المشئنة بكليته راضياً سعيداً .

والجاهل تصور أنه ليس عبداً لأحد .. وأنه لا مشيئة لأحد عليه
وأنه اختار نفسه (وهو ما اختار إلا حيوانه) .

والحق أنه هو الآخر عبد خاضع دون أن يدري .. وإنما هو
خاضع بالكرباج منساق بالعصا يتصور أنه يسير إلى الأمام وهو
يدور في ساقية وعلى عينيه عصابة كالنور يكدح لبطنه وشهواته .

وقد أخرج جهله وعناده من القرب إلى البعد .

ولأهل البعد النار ولأهل القرب الجنة .

وإنما تكون الجنة مكافأة لعارف عرف .

ولا حرية إلا لعارف .

ولا حرية إلا بالله ومن الله .

ولا تأتي الحرية إلا خلعة من الله .

إنما تأتي حرية العارف من أنه اختار ربه فخلع الله عليه حريته
وصفاته فأصبح العبد الرباني الذي يرى يبصر الله ويسمع بسمع الله
ويحيا بحياته وتلك هي الحرية القصوى التي يحرك بها العارف الجبال
والتي أسرى بها محمد عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى
وعرج إلى السموات وجاوز المنتهى .. والتي أحيا بها عيسى الميت .

أما التحرر بمعنى التمرد على الشرائع وعصيان الأمر الإلهي
واستباحة الأعراف الخلقية فهو مثل السباحة ضد التيار نهايتها الإتهام
والتعب ثم الغرق .

وكيف يكون الإضراب عن الطعام والشراب والتنفس حرية
وهل تكون إلا حرية الموت أو حرية القضاء على الحرية .

وكيف يكون اتباع الشهوات حرية والشهوات ذاتها عبودية
وقيد وكيف تزداد حرية بدخولك في جاكete جبن وخضوعك
لحيوانك .

إنما التحرر لا يكون إلا خروجاً من النفس وضروراتها
واستعلاء على هواها وشهواتها .

والعارف الذي خرج من نفسه واختار ربه هو بالمعنى العميق
قد اختار حقيقته فهو ما خرج إلا عن نفسه الحيوانية الأمارة وتلك
نفس دونية طينية حكمها حكم الجسد .

أما حقيقة كل إنسان فهي نفسه العلوية الملكوتية التي هي على
مثال النفخة الربانية التي أودعها الله في الجسم .

وهي المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم في المبدأ الأول .

والعارف باختياره لربه قد اختار نفسه الحقيقية (النفس المثال التي خلقها الله في أحسن تقويم) .

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » .
(٤ - التين)

ولقد ردنا الله إلى أسفل سافلين حينما أودع هذه النفس العلية في الحشوة الطينية وابتلاها بالشهوات والحيوانية .. وتلك هي حياتنا الدون التي نحياها .. ولكن العارف بخروجه من هذه النفس الحيوانية يسترد شفافيته الأولى ويعيش نفسه الحقيقية ويكتشف نسبه الروحاني باعتباره تفحة من الله وهو بهذا يختار أصله وحقيقته .
يختار ربه .

إنه إذن أعلى درجات الاختيار وإن كان في الظاهر خروجاً من الاختيار وإسقاطاً للتدبير .

* * *

وحرية العبد بهذه الصورة لا تتنافى مع التوحيد .. فما أخذ العبد حريته إلا من الله وما جاءت حريته في أن يشاء إلا بمشيئة إلهية ودستور إلهي .. فقد أرادنا الله أحراراً .. ولم نغتصب نحن هذه الحرية من الله اختلاساً .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . (٣٠ - الإنسان)

ثم إن الله حينما قضى علينا قضاءه المسجل في كتابه فإنما قضى

على كل إنسان قضاء من جنس قلبه ومن جنس ضميره ومن جنس نيته .. من أراد حرث الدنيا مهد له فيها ومن أراد حرث الآخرة هداه إليها .

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤنه منها » .
(٢٠ - الشورى)

« إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم » .
(٧٠ - الأنفال)

« فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره للعسرى
وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .
(من ٤ إلى ١٠ - الليل)

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » ١٠ - البقرة .

« والذين اهتدوا زادهم هدى » ١٧ - محمد

تأني التيسيرات دائماً من جنس النية .. فلا ثنائية ولا تضاد بين اختيار الرب واختيار العبد .. وإنما الإرادتان تلتقيان في خط واحد وإرادة واحدة .. الله يسيرك إلى عين اختيارك ويختار لك من جنس نيتك .. لا تناقض ولا ضدية .

ومراد الله بهذا أن يخرج المكثوم في القلوب .

« والله مخرج ما كنتم تكتمون » .. (٧٢ - البقرة)

ليتم الغرض من الدنيا كدار ابتلاء وامتحان .

ويظل الله هو الحاكم الأحد بلا شبهة شريك .. فلا حرية إلا به ولا تيسير ولا تمكين إلا بإذنه .

أما خارجاً عن الله .. فلا حرية ولا حياة ولا قدرة :

فما سوى الله نار

وما سوى الله ظلمة

وما سوى الله قيد

وسبحان الذي أسرى بعبده

فلا سريان لنا إلا على جناحه

ولا نفاذ من أقطار السموات والأرض إلا بسلطانه .

ولا حرية إلا به

ولا نور إلا بنوره .

وهذا الاعتراف هو عين الإسلام .

وهو عين شهادة أن لا إله إلا الله .

أى لا حاكمية ولا سلطان إلا له .. تقدست أعتابه عن الند

والضد والصاحبة والولد والشريك والشبيه .

الحق الإلهي

بطلة الحادث « سليمة إبراهيم » ٨٠١ جنابات الصف اشتركت مع أخيها ١٧ سنة في قتل زوجها ضرباً وخنقاً ثم هجمت عليه وأكلت أعضائه وهو ميت .. هكذا تقول اعترافاتها المفصلة أمام وكيل النيابة والقاضي .. وهكذا شهدت الوقائع كما تشهد الجثة .

قرأت الحادث مع الألوف الذين قرأوه وشعرت معهم بتلك التشعيرة الباردة والفضول إلى معرفة هذا الحادث الغريب في وحشيته .

هل يمكن أن يبلغ الغل بامرأة إلى هذا المدى .

وماذا يمكن أن تكون صورة هذا الوجه الذي يأكل الميتة .

طالعتني في سجن النساء بالقناطر امرأة وسيمة دقيقة الملامح أسنانها جميلة كصفين من لؤلؤ .. على وجهها سكينه وطمأنينة .. تصلي وتصوم وتنام نوماً هادئاً عميقاً .. وكلامها كله عن رحمة الله وأمر الله وحكمة الله .. وكأنها رجل صوفي ضل مكانه .

أيمكن أن يخالف الظاهر الباطن إلى هذا الحد .

أيمكن أن تخدع الصور وتكذب العين واليد واللسان .

أيمكن أن تصبح الحياة كلها تمويهاً .

وكيف يخلق الله للحقائق البشعة وجوها جميلة .

وما الدافع الذي أخرج من الباطن كل هذا الشر المخفي .

وما الذي هتك الحجاب وكشف النفس على ما هي عليه .

الزوج تزوج عليها ..

هذا أمر عادي في اليدو ..

وهو يتكرر في تلك البيئة دون أن تأكل النساء أزواجهن .

الزوج طلق الزوجة ثم ردها ..

كان يسىء معاملتها أمام الزوجة الجديدة ..

أهي غصبة للنفس وللكرامة ..

ولكن الزوجة اعترفت بأنها كانت على علاقات متعددة مع

رجال متعددين أثناء الطلاق فهي لم تحفظ لنفسها كرامة ..

كيف لا يبدو كل هذا الخراب النفسى على ذلك الوجه الجميل

السمح الوديع المطمئن الهادئ كأنه وجه قديس . تذكرت رجلاً
جميلاً رأيته ذات مرة .. كان جميلاً فاتناً مفتول العضل جذاب
الصورة كأنه نجم سينما .. وكان مهذباً يتكلم بشرة خفيفة .. وكان
يجفل بنظراته في حياء .. ثم تبين لى فيما بعد أنه مجنون يعالج
بالصدمات الكهربائية .

كان باطن الرجل خراباً مطلقاً ..

وكانت حقيقته الخواء .

وكان فارغاً تماماً ومجوفاً من الداخل .. إلى هذا المدى يمكن
أن تكذب الصور وتخدع الأشكال .

« إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أشكالكم وإنما ينظر إلى
قلوبكم وإلى أعمالكم » .

في ليلة الجريمة عاد الزوج إلى زوجته بهدية من الحلوى
ليصالحها « لم يكن يدرى رغم سنوات المعاشرة الطويلة أنه ينام كل
ليلة مع ضبع » .. قتلته في لحظة غزل .. كيف واتها الشجاعة ؟

نفس السؤال يلح على باستمرار .

كيف تتنكر الحقائق في غير ثيابها .

ويلبس الباطل الحق ..

ويلبس القبح الجمال ..

وتلبس الجريمة الحب

وكيف يخلق الخالق هذه العبوات الجميلة لهذه النفوس البشعة،
كيف يضع السم في وردة ويضع العسل في عقرب ويخفي المتفجرات
في أقنعة من حرير .

أهذا مصداق الآية :

« والله مخرج ما كنتم تكتمون » (٧٢ - البقرة)

أهو المكر الإلهي الذي يستدرج به الله النفوس ويمتحنها بعضها
ببعض ليفضح خباياها ومكتموماتها وليخرج حقائقها ويكشف
بشاعاتها فإذا بالمرأة الجميلة جلاداً وإذا بالرجل الدميم ملاكاً ..

هي لا تشعر بندم أو تأنيب ضمير .. وبقينها أنها على الحق .

أيمكن ألا يعرف الواحد منا نفسه ..

لقد قال أبو بكر أنه لا يطمئن إلى أنه صار إلى الجنة حتى
ولو دخلت إحدى رجليه الجنة مادامت الرجل الثانية لم تدخل بعد ..
وذلك خوفاً من مكر الله .. خوفاً من أن يكشف الله في اللحظة
الآخيرة شراً مكتوماً في نفسه يدخله به النار الأبدية شراً، كان يكتمه
أبو بكر في نفسه دون أن يدري به أو يدري عنه .

وتلك هي ذروة التقوى ..

خوف الله ..

والتواضع وعدم الاطمئنان إلى براءة النفس ونقاها وخلوها
من الشوائب ..

وعدم الغرور بصالح الأعمال ..

وخوف المكتوم الذي يمكن أن يفتضح فجأة بالامتحان ..

لم يكن أبو بكر من أهل الدعاوى ..

لم يكن يدعى لنفسه منزلة أو صلاحاً ..

وإنما كان من أهل الحقائق ..

وأهل الحقائق في خوف دائماً من أن تظهر فيهم حقيقة مكتومة
لا يعلمون عنها شيئاً تودي بهم إلى المهالك فهم أمام نفوسهم
في رجفة ..

وأمام الله في رجفة ..

وذلك هو العلم الحق بالنفس وبالله ..

فالنفس هي « السر الأعظم » .. وهي الغيب المطلسم ..

هى غيب حتى عن صاحبها .. لا تنكشف له إلا من خلال
المعاناة .. وهى فى مكر دائم تظهر وجهاً من وجوها وتختبئ ألف
وجه ..

والله غيب مطلق وخفاء تام .. وهو سبحانه ذروة المكر إن
صح القول ..

لماذا وصف الله نفسه بالمكر ؟ ! ؟ وقال :

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (٣٠ - الأنفال)

وما الفرق بين مكر الله ومكرنا ..

وكيف يمكر الله ..

الله يمكر لإظهار الحقيقة ..

ونحن نمكر لإخفائها ..

ولهذا كان مكر الله خيراً كله ومكرنا سوءاً كله :

مكر الله نور ومكرنا ظلمة .

مكر الله عدل ومكرنا ظلم ..

وهل هناك أسوأ من مكر هذين الصنفين من الأسنان اللؤلؤية

التي تأكل الميتة وتمتص الدم البارد وتوشوش بالحب وتضممر
الموت .

شيء واحد فى مظهر هذه المرأة العجيبة كان يتم عليها ..
هو صوتها ..

ذلك الصوت النحاسى المعدنى الذى يخرج عالياً حاداً رتيباً
على الدوام وكأنه يخرج من أنبوبة معدنية وليس من قلب يشعر .

صوت لا يبدو فيه حزن ولا فرح ولا غضب ..

صوت معرى مجرد من جميع المشاعر ..

صوت أقرع أملس لا يشف عن أى انفعال .. يعطيك الإحساس
دائماً بأن هناك شيئاً غير إنسانى يتكلم وإنك أمام جماد ينطق ..

تتكلم عن الحب كما تتكلم عن الكراهية ..

تتكلم عن رحمة الله كما تتكلم عن انتقامه بنفس الوجه الجامد
والثبرة النحاسية الرتيبة ..

يخيل لمن يسمعها أن هناك شخصاً آخر يتكلم فى داخلها ..
شيطاناً .. أو جنناً .. أو ملقناً يتكلم من وراء خباء ..

هل يمكن أن تتلبسنا الشياطين ..

الله يقول أن الشياطين لا تتسلط إلا على أشباهها وأنه لا بد أن تكون هناك مشاكلة ومجانسة بين اثنين ليتسلط واحد على الآخر..

« شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » (١١٢ - الأنعام) .

الشیطان لا يتسلط إلا على شیطان مثله حيث يمكن التواصل والتأثير بحكم المشاكلة ..

أما عباد الله فلا مدخل للشيطان عليهم ..

فالله يقول لإبليس ..

« عبادى ليس لك عليهم سلطان » : (٤٢ - الحجر) .

فلا حجة لمن يقول .. تسلط على الشيطان .. فنحن نرد عليه قائلين .. (لأنك شيطان مثله) .

ولمن يتصور أن المكر الإلهي ينافي العدل .. نقول بل هو عين العدل .. فالله لا يمكر إلا بماكر .

« يمكرون ويمكر الله » . (٣٠ - الأنفال) .

« يكيدون كيداً وأكيد كيداً » . (١٦ - الطارق) .

وحقيقة الأمر أن الله يسلط على الإنسان الذي يخفى شيئاً في

نفسه إنساناً آخر يخفى شيئاً في نفسه .. وهذا منتهى العدل .. بل نحن أمام ميزان مضبوط تماماً .. ففي كلتا الكفتين نفس مأكرة تخفى شيئاً .

ثم أنه من تماكر الاثنين بعضهما ببعض تظهر الحقيقة ..

وهذه هي الدنيا

ولهذا خلقها

لإحقاق الحق

ما خلق السموات والأرض إلا بالحق .

وهذا عين الخير في أمر خلق الدنيا رغم ما يبدو من دم وجريمة وشر وبشاعة .. فالعبرة بالخواتيم ..

وشرور الدنيا زائلة مهما استحسنت ..

ولا أهمية لشر زائل مادام سوف يكشف لنا في الختام عن خير باق ..

ولو فكر الواحد منا في الأمر تفكيراً هادئاً ولو تأمل ما يجري في الدنيا حوله في عمق لأدرك أن الأمر جاد رغم ما يبدو في الظاهر

من هزل وعث فكل شيء محسوب وكل شيء يجري بموازين دقيقة .

ونحن الماكرون الماهرون .. وكل واحد فينا يتصور أنه يخطط بفطنة .. وذكاء .. نحن دون أن ندري نكشف بعضنا ونكشف أنفسنا من خلال مآزق الشطرنج المتوالية التي تترجنا فيها المقادير ونفتضح عبر هذا الفعل المتسلسل الذي اسمه الدنيا حتى لا تبقى فينا بقية .. ثم نموت وقد ظهر المكتوم .

والذين يدركون تمام الإدراك لب القضية تصيبيهم الرجفة من الرأس إلى القدم ..

إن ما يجري في هذه الدنيا ليس عبثاً ..

بل إن الأمر جاد بصورة مخيفة .

وفي كتاب المواقف والمخاطبات لابن عبد الجبار بن الحسن النعماني يقول الله لعبده ..

أنا أقرب إليك من نفسك ..

أنا أقرب إليك من نطقك ..

ليس بيني وبينك بين

وليس بيني وبينك أنت ..

وتلك هي الحضرة الإلهية الشاملة .. حضرة الذي لا ينام ولا يغيب ولا يغفل ولا يعزب عنه مثقال ذرة .. الذي يقرب القلوب والأبصار فيجلو معادنها ويكشف أسرارها .. ذلك هو الحق ..

والذي لا يخاف الحق ولا يعرف الحق .. فإنه ما يخاف وما عرف .. ولن يغنيه بعد ذلك أي علم ولو حصل علوم الأولين والآخرين ..

والرجل الماكر الذي يسألنا دائماً .. كيف يذهب إنسان متحضر في السويد إلى جهنم .. كيف يذهب ذلك الرجل الأبيض النظيف الجميل اللطيف أستاذ التكنولوجيا إلى جهنم ويذهب حاج مغفل يبكي عند الكعبة إلى الجنة .

نقول له لقد ذهب ذلك الحاج الذي يبكي عند الكعبة بالفعل إلى الجنة من الآن .. إنه من الآن في الجنة .. لقد أدرك روح المسألة واتصل بالعلم الكلي المطلق .. أما صاحبك فما زال يشغل بالنحاس والحديد والمنجنيز .. ما زال مشغولاً بالمسألة ذاتها .. لم يدرك روحها ..

وهذا أمر يفيد في الدنيا .. ولكن لا قيمة له بعد ذلك والله لم يمنعنا عن كشف الحديد والمنجنيز بل أمرنا به .

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

وذلك أمر بإدراك المنافع في الحديد ..

ولكن دين الله يقتضى منا التوغل وراء ذلك لإدراك روح المسألة بحثاً عن نفع آخر باق .. وبذلك يجمع المسلم بين نفع الدنيا ونفع الآخرة فالحديد والمنجنيز ليساً كل شيء .. فالحاج الذى يبكى عند الكعبة ليس مغفلاً .. فهو يبكى بسبب علم آخر عميق تعلمه .. هو علمه بنفسه وعلمه بربه .. وهو واقف على عتبة من العلم أعلى من صاحبنا أستاذ التكنولوجيا فى السويد الذى وقف علمه عند الحديد والمنجنيز .

وأين هذا العارف بنفسه والعارف بربه .. من هذا العارف الآخر الذى توقفت معارفه عند المادة وقوانينها .

إن المغفل حقيقة هو الذى عرف المادة وغفل عن رب المادة ..

وتحصيل العلوم المادية سهل وهو فى الكتب وفى المدارس وفى مصر وحدها أكثر من عشرة آلاف حامل دكتوراه وأكثر من مائة ألف حامل ماجستير ودبلوم .

ولكن كم فى هذا البلد من الآحاد أو العشرات ممن يمكن أن يقال عنهم من العارفين بنفوسهم والعارفين بربهم .

لقد حصلت علوم الطب وأنا شاب ..

وهأنذا أكتهل دون أن أصل إلى معرفة بنفسى وبربى .. فتلك ذروة لا يبلغها إلا أفراد ..

هؤلاء الذين قال عنهم ربهم :

« إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً » . (٥٨ - مريم)

فذلك حال صاحبنا الذى سجد باكياً عند الكعبة ..

وتلك مرتبة ومرتلة ودرجة بينها وبين صاحبنا النظيف اللطيف الذكى المتحضر أستاذ التكنولوجيا السويدي سبع سموات .. هذا سيد من سادة الأرض صاحب ملك محدود فى زمن محدود .. وذاك سيد على الأولين والآخرين له فى السموات ملك بلا حدود فى أبد بلا تناء ..

فمن هو المغفل بالحقيقة ..

ومن هو الفائز بالحقيقة ..

ولكن نحن فى عصر مادی .. وذكر الجنة والسموات أمر يتسم له أهل الدنيا وسادتها الماكرون ويضحكون فيه على سداجتنا ولا أحد يهتم فى هذه الدنيا إلا بالربح العاجل ..

ولهذا اقتضى العدل أن يتعامل الله مع هؤلاء الماكرين ..
بالمكر الإلهي .. « ومكروا مكرأ ومكرنا مكرأ » (٥٠ - الفل) .
وما هم فيه من رخاء وغنى وعلو .. هو استدراج وليس علواً .
« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

« أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبينين نساوع لهم في الخيرات
بل لا يشعرون » .

« ومكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول
منه الجبال » . (٤٦ - إبراهيم) .

وصاحبنا الذكي الذي لا تنفذ له حجج إذا رأنا نحكم حول
عنقه حلقات المنطق وإذا شعر بمنطقنا يوشك أن يسكته ما يلبث
أن يصرخ :

وماذا أساوى أنا إلى جوار عظمة الله .. ولماذا يعذبني الله وأنا
لا أساوى شيئاً .. وهل أنا إلا ذرة تافهة ..

وهو تواضع كاذب وانكسار مفتعل لأنه لو شعر حقاً بعظمة
ربه وبتفاهة نفسه لخر ساجداً باكياً أمام هذه العظمة ولشعر بالخشوع
أمام تلك الهيبة .. إنما هي الملاحاة والجدل .

ونرد على مكره فنقول :

لست تافهاً عند ربك ولا هين الشأن فقد نفخ فيك من روحه
وأعبد لك ملائكته وسخر لك أكوانه كلها وأعطاك التسرمد والخلود
ومنحك الحرية .. إن شئت كنت ربانياً .. وإن شئت كنت شيطانياً ؟
فأين هو ان الشأن من هذا كله .

بل هو تحايل الماكرين حينما يصبح ظهركم إلى الحائط وتقطع بهم
الحجج فيتمسكون ويتأوتون ويتخافتون ويتهايمسون .. هل نحن
إلا ذباب يارب ..

وهل للتراب أن يتناول ..

وهل للطين عندك شأن يساوى أن تحفل به وتعذبه ولو أحس
الواحد منهم بالفعل أنه تراب ولو انطلقت أعماله وأقواله من هذا
الإحساس لكان له مع الله حال غير الحال وشأن غير الشأن .

ولكنه المكر ..

ومهما تماكروا .. فالله أمكر ..

عن الظاهر والباطن

توقفت أمام صفحة البورصة وسوق الأوراق المالية أتابع
تلك الرقصة المجنونة للأرقام .. وأسائل نفسي .

ترى ألتنا نحن البشر أيضاً بورصة وأسعار تنخفض وترتفع
ويبور الواحد منا أحياناً ويروج أحياناً وتفلس قيمته أحياناً أخرى.

إنى أرى الطفل الرضيع ابن المليونير تتخاطفه العصابات
وكأنه قطعة من الماس وتطلب فيه الملايين فدية .. ثم أرى نفس
الشخص في شبابه إنساناً متلاعفاً مستهتراً .. ثم أراه في رجولته
مجرماً وقاطع طريق .. ثم أراه في شيخوخته معلقاً على حبل
مشنقة ولا أحد يعبأ به .

وأرى طفلاً آخر يبدأ حياته في ملجأ للأيتام .. ثم أرى نفس
الطفل في شبابه وقد أصبح فناناً ونجماً متألّقاً مثل عبد الحليم حافظ
توزن بضع ساعات من صوته بالملايين .

وأرى السجين في زنزانه لا يسأل عند أحد يصبح بين يوم
وليلة زعيماً مثل لينين يحكم نصف العالم بنظرياته ثم أراه يموت
فتتحول جثته إلى صنم معبود وكعبة يطوف حولها الألوف .

وأرى النبي العظيم يوحنا المعمدان تقطع رأسه بأرخص سعر
قطعت به رأس ... تلبية لهوى امرأة عاهرة ترقص عارية أمام
الملك .. فيقول لها الملك الخمور .. أطلبي ما تشائين ثمناً .. فتقول .
أطلب رأس هذا الرجل فيقطع لها رأسه على طبق ..

وأرى الراهب ستالين يتحول إلى الملحد ستالين ثم إلى الحاكم
الجبار الذي يحرك التاريخ والدكتاتور الفرد الذي يعز ويذل
وينفض ويرفع بإشارة من يده ، ثم أراه بعد الموت ينتكس إلى
مجرم ويدينه شعبه وينبش تابوته وتحرق جثته ويلقى بها في حفرة .

وأرى الطفل البليد في المدرسة يصبح أينشتين .. وأرى
موظف البنك يصبح يوهان شتراوس .. وأرى فان جوخ الذي
عاش ومات شحاذاً يتحول بعد موته إلى بورصة متحركة من
الملايين يتسابق تجار اللوحات ولصوص التحف على تركته الفنية
التي لا تقدر بثمن ويصبح توقيع المزيّف أغلى من توقيع مليونير
حقيقي ..

وتلك أسعارنا بين الهبوط المجنون والارتفاع المجنون في تلك
البورصة الدنيوية التي تبدو وكأنها العبث .

لا ينجو حتى الأنبياء من هذا القلب في الأحوال بين البسط
والقبض .

وما هو بالعبث وإنما هو تمحيص وفرز وفصل للعناصر
بالغليان والتبخير والتبلور .

ولكنها دائماً بورصة خادعة لا تدل تقلباتها السعريّة الظاهرية
على قيم الناس .. فإن النبي العظيم يوحنا المعمدان الذي قطعت
رأسه بأبخس الأسعار بمجرد إشارة من امرأة بغى ومات كأهون
ما يكون الموت وألقيت جثته في حفرة دون احتفال ودون
مشيعين :

ذلك السعر البخس لرجل لا يدل على هوان صاحبه عند الله
كما أن لينين الجالس على عرش نصف الكرة الأرضية والذي مات
فشيعته الملايين ورثاه الشعراء وتحول جسده المحنط إلى صنم معبود
وتحول مرقده إلى كعبة .

ذلك السعر التشریف الرفيع لرجل لا يدل على شرف صاحبه
عند الله ..

ولأنما هي قيم ظاهرية .

ولأنما هي بعض ما تتقلب فيه النفس أثناء عملية تمحيصها
بالغليان والتبخير .

ولا تنكشف القيم الحقيقية للنفوس إلا بالاستخلاص الأخير
لجواهرها وإخراج مكنوناتها في ذلك اليوم الهائل يوم يبعثنا الله
بعد موت .. يوم تبرز حقائقنا عارية بين يدي خالقها في تلك
الساعة الرهيبة التي وصفها الله بأنها ستكون « خافضة رافعة »
حيث تعود فتخفض ملوكاً جبارين إلى حضيض الهاوية وترفع
رجالاً صالحين كانوا في حياتهم خاملين مغمورين لا يساوون شيئاً
إلى قيم العزة والكرامة ..

وحينذاك .. وحينذاك فقط .. تثبت الأسعار إلى الأبد
فالأعلون يظلون في عليين والأسفلون يظلون في الأسفلين وتصبح
مكانة كل شخص دالة عليه ..

فذلك هو عالم الحق .. حيث كل نفس قد انكشفت مترلتها
الحقة ... وبلغت رتبها الحقة .

وانتهى ذلك التقلب في الأحوال الذي جعله الله في الدنيا امتحاناً
للعقول وفتنة للنفوس ..

وأني حينما أستعرض حياتي وما تداول عليها من تقلبات

وما لابسها من انخفاض وارتفاع .. أشعر أني ألامس هذا
السر ... فإن ما باشرته في هذه الحياة من متع ولذات شعر
الآن بانصرامها وأنا أتأملها من البعد أنها لا شيء تماماً .. وأن
حكمها حكم الآلام والمشقات التي انقضت هي الأخرى وانصرفت
بل ربما كانت المشقات أكرم على نفسي بما خلفت من بصيرة
وفكر واعتبار وجلد ومصابرة وبما أضافت إلى نفسي من أبعاد
إيجابية .

ولذا ما أراني وجدت نفسي مرة أهفو إلى العودة إلى صبوة
أو أرغب في استعادة لذة أو أهدهد حيناً إلى أن يكر بي العمر
راجعاً ليقف عند متعة عزيزة ...

ذلك ما أراني قد شعرت به أبداً ..

ربما لإحساس شديد الوضوح بأن نهر الوعي يضيق كلما
رجعت إلى الوراء مع صبوات العمر . يضيق بلذته كما يضيق
بآلامه .. وأن الوعي دائماً إلى اتساع والرؤية إلى اتساع والعقل
إلى نضج والشخصية إلى تكامل كلما تقدم العمر ..

ولهذا لا أحب أن أعود إلى نقص مهما حمل إلى هذا النقص
وعوداً باللذة .. فإني لا أراها الآن على البعد لذة ... بل أراها
مرضاً وحقاً وأرى القيم الظاهرية لتلك البورصة الدنيوية تنعكس
في وجداني وكأنما تقوم قيامتي

الخافضة الرافعة من الآن .. فتقلب المدلولات فإذا باللذة المأ
وإذا بالألم لذة .

وتلك صحوة لا أساوم بها على أى متاع ..

وإذا كان في العمر لحظات أعتر بها فعلا فهي لحظات الصحو
أمثال تلك اللحظة .. حينما تتراءى الحقيقة من خلف سراب الوهم
وتلامس الروح السر من وراء لثام الواقع فأرى النفوس على
ما هي عليه حقاً وليس كما تصفها بورصة الواقع بأسعارها
الخادعة ..

وهي دائماً لحظات تشملها الرجفة والرغبة والخوف من أن
ينكشف جوهرى أنا الآخر في الختام على ما لا يرضيني .. وأن
أكون من أصحاب المعادن الدنيا .. التي هي حطب النار ..

وذلك هو الغيب الخيف في أمر الخواتيم التي لا يعلمها إلا الله .

فهرست

٣	القرآن كائن حتى
٢١	النفس والروح
٣٣	لماذا خلقنا الله
٤٩	الصوفي والبحر
٥٧	من أنت
٦٧	أسلوب خطبة الجمعة
٧٩	إسرائيل تحرف الأناجيل
٨٩	العلوم الذرية والإسلام
٩٩	الإسلام والطب
١١٣	في مسألة الخير والمسير
١٢٧	المكر الإلهي
١٤٣	عن الظاهر والباطن